أحاسيس في المنفى

أسمى الزهار

أحاسيس في المنفى

رواية

دار الفارابي

الكتاب: أحاسيس في المنفى

المؤلف: أسمى الزهار

الناشر: دار الفارابي – بيروت – لبنان

ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)

ص.ب: ٣١٨١/ ١١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: آذار ٢٠٢١

ISBN:978-614-485-103-6

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة إلكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

إهداء

إلى كل الذين سرقت منهم الحياة ابتسامتهم اليتيمة... وشـرّدت حـروفهـم.... واغتالت كلماتهم.... ورسمت بملامحهم صـورة حزينة لخريف مبكّر.. وأقحمت دموعهم في معركة بكاء طويلة، لكنهم اجتـازوا بحر حياتهم بسفينة صبرهم.. واقتنصوا لحظات الـدّفء من صقيع الدّهر، فانحنت لهم جبال الألم... وابتسمت في وجوههم الأقدار.

كانت تعلم أن الطائرة مركبة محجوزة للموت، لكنها قررت أن تسافر وتحجز لها مقعداً ولو لساعات كالذي حجزته من قبل للحياة وتحمّلته لدقائق وساعات وسنوات.....

لملمت نفسها وواجهت شعور الخوف بداخلها وصيّرت أحاسيسها المزعجة والمتشائمة بمصفاة الطمأنينة والإيمان بالقدر... فلمعت بداخلها امرأة أخرى هي أقوى منها وأكبر بكثير... بجرأتها وشموخ إرادتها وصلابة عزيمتها... وحنكتها في تغيير الأمور من الأسوأ إلى الأحسن لم تكن تعرفها من قبل... كأنها كانت في مدرسة الرّوح تلميذة غائبة... لم تجد يداً معاتبة تكسر هذا الغياب بحضور قوي ومفاجئ كيف استطاعت وتغيّرت...؟ ومن روحها خرجت أنثى أخرى كيف تمرّدت...؟!!

مرّت أسئلة مبهمة بمخيّلتها لكنّها صمدت، واجتازت هذا النفق المظلم الذي بدا لها غريباً في بادىء الأمر، لكنّه كان عادياً..، فأمواج البحر لطالما تساءلت عن سرّ وجودها ومدّها وجزرها لكنّ البحر ظلّ دائماً متكتّماً يأبى أن يجيب...

قطعت تذكرة سفر والفرحة تكتسح وجهها اكتساحاً.. ودون أن تشعر وجدت نفسها تحضّر حقيبة السّفر ببعض ما تبّقى من

الخوف الذي عاش طوال أعوام يمشي متفاخراً بين أروقة نفسها المتمرّدة التي كادت تضمحلّ وتتلاشى كسحابة فتيّة قصف بها برق الحياة لتمطر كلّ ما بجعبتها من دموع... لم يكن لألمها الشّجاعة الكافية كي يفارقها حتّى وهي منشغلة بتحضيرات السّفر... كانت الأفكار تلاحقها كظلّها... وظلّت ترسم لها أحلاماً مزعجة بألوان اللّيل المتشائمة، وتوقع أسفل اللّوحة بابتسامة مباغتة... حاولت دلال أن توقف سطوة التفكير عليها وتتحرّر من هذا المستعمر الفتّاك الذي لا يواجهها وجهاً لوجه... وإنما يظل مختبئاً خلف جمجمتها الدائرية الشكل ليعيث فساداً بحقولها الخضراء وأزهارها التي نبتت تواً بين أحضان مخيلتها الجميلة.

نظرت إلى المرآة فلاحظت بعضاً من التجاعيد الرفيعة التي بدأت بالظهور على تقاسيم وجهها فتساءلت... هل تشيخ أحاسيسنا كما تشيخ وجوهنا... وهل هنالك كريمات معينة لإخفاء تجاعيد الروح كالتي تباع في الصيدليات خصوصاً لتجاعيد البشرة...؟

انتبهت إلى الساعة... كانت الحادية عشرة صباحاً ولم يبقَ لموعد مغادرتها سوى ساعتين... سارعت في إتمام تحضير الحقيبة، لبست ثيابها، وانتعلت حذاءها ذا الكعب العالي... رتّبت خصلات شعرها الأحمر الجريء ووضعت ساعتها السويسريّة المرصّعة بالألماس... حملت حقيبة يدها الجلديّة السّوداء ودون أن تنسى وضعت عطرها المفضّل لديور الذي لم تكن لتستغني عنه قط.. خرجت من غرفتها فوجدت الخادمة تحمل

دلواً لتنظيف الأرضيّة... كادت تصطدم به... دفعته بركلة قوية... فتبلّلت الخادمة... كانت ستنصرف لكنها عادت أدراجها... التفتت قائلة....

- هذه آخر مرّة أخرج من الغرفة وأجد دلواً يعترض طريقي، سأجنّ من تفاهتكم أيّها الخدم.

كان كلّ من في القصر يعمل... لكنّ الحوار الذي دار بين الخادمة ودلال لم يكن بعيداً عن آذانهم... ولا عن شعورهم...

لقد تعوّدوا هذه المرأة المتغطرسة التي شربت منذ نعومة أظفارها حليباً بكؤوس من الذهب... لا لتكون امرأة ثرية ولكن لتعيش طوال حياتها تجهل أن الثّراء الحقيقي يكمن بداخل الإنسان لا بين يديه...

لم تكن لتدري كم ثمن العيون... وكم يزن الإحساس... أو كم حجم الأنفاس التي لا تتوقّف في صدورنا ليل نهار....

فتاة ولدت بمجتمع لا يؤمن سوى بالمادّة ولا يثق إلّا بالعملة الصّعبة، كيف ستقدّر أنّه في الحياة أشياء لا تباع ولا تشترى... هي أجمل بكثير من أن تُرى.. أو نلمسها.. أو نحبسها ونقنّنها بقوانين مضبوطة ومدروسة...

نعم... يستطيع الإنسان أن يصعد فوق الميزان كي يعرف كم وزنه لكنّه لا يوجد ميزان يقيس به حجم نفسه أو كتلتها لأنّ الرّوح أغلى بكثير من أن تُقاس بالأرقام..

كان سائق السيارة خارجاً ينتظرها بخوف وارتباك كعادته... وما إن رآها حتى أسرع ليحمل عنها الحقائب قائلاً:

- صباح الخير سيدتي...

فردّت عليه في غضب وتجهّم...

- لا خير في صباح مليء بوجوه كوجوهكم.

أطرق رأسه وابتسم... لقد أصبح الآن يعرفها ويألف تصرّفاتها المتمرّدة وكلماتها البذيئة التي تتنافى وشكلها الخارجي الجذّاب...

ما إن ركبت السيّارة حتّى رنّ هاتفها الخلوي... ردّت فإذا بها أمّها تؤنّبها لأنّها لم تنزل غرفة السّفرة لتتناول فطور الصباح.. ولم تودّعها.

- تسافرين دون توديعي أنا ووالدك يا دلال...!

- لن تكون سفرتي طويلة... هما يومان فقط وأعود...

- وهل أخذت كل الوثائق المطلوبة؟

- كفاك تدخّلاً بأمور لا تفهمينها يا أمّي.. أنا المديرة العامة لشركات أبي وأفهم عملي جيداً.

- حسناً.. هاتفيني حينما تصلين..

أقفلت دلال الهاتف وبداخلها شيء ما... شعور ما يجول متمرّداً على تمرّدها يقول لها أنت لست إنساناً.. أنت مجرد عروس الماريونات التي أدخلها والدها كلية الاقتصاد لإرضاء طموحه على حساب سعادتك وآمالك الشخصيّة.

لقد كان والد دلال رجل أعمال ناجحاً، لكنه مقابل ذلك...

كان إنساناً فاشلاً.. لأنّ الرجولة التي تُبْنَى على منطلق غير إنساني مصيرها الزوال والاندثار... تعوّد منذ صغره أن يجمع المال حتى استطاع أن ينشئ مصانع ويؤسّس شركات وعندما تزوج لم يرزق أطفالاً سوى دلال فكانت يده اليمنى في كل شيء باعتبارها الوريثة الوحيدة للعائلة... اجتازت مرحلة البكالوريا وكان حلمها أن تصبح كاتبة كبيرة.. لكنّه وقف في وجهها وأقفل كتاب أحلامها قبل أن تتصفّحه أو حتّى تعرف محتواه.. ودون أن يأخذ برأيها ويستشيرها، وجدت نفسها جالسة بين طلّاب معهد الاقتصاد الدّولي لتدرسه مكرهة.. مرغمة.. كان الأمر بالنسبة إليها صعباً جدّا في البداية، لكنّها استطاعت أن تتجاوز الألم بكتاباتها وأشعارها التي لم يكن يعرف عنها أحد شيئاً سوى القلم...

انحدرت دمعة من على خدّها.. ففتحت حقيبتها لتأخذ منديلاً، فإذا بهاتفها يرنّ مرّة أخرى... إنه والدها:

- هل أخذت كل ما تحتاجين إليه يا دلال..؟
- نعم كل الملفات يا أبي... سأهاتفك عندما أنهي صفقتنا مع الشركاء... هل أحضر لك شيئاً معي؟

أقفل الهاتف قبل أن تكمل جملتها.. ليس لديه وقت كثير. وقته بالنسبة إليه ثمين وحتى أثمن من ابنته.

وهي في سيارتها الفخمة متجهة إلى المطار لتعتلي الدرجة الأولى في الطائرة.. لم تكن تتمنى شيئاً سوى لو أنها تحس في يوم من الأيام أن والدها يحبها بالطريقة التي تريدها.. لا بالأسلوب

المتّبع والمنتهج في تعاملاته والذي يجعل الحب سجيناً ومعلّباً أكثر ممّا ينبغي ومرفقاً ببطاقة صلاحية تبدأ يوم ولادتها.. وتنتهي يوم برمجتها لتسيير شركاته..

آه منك أيتها الحياة...

أحياناً تأخذين ما هو أجمل لتعطينا ما هو أبشع، في وقت يظن الآخرون من حولنا أننا سعداء.. يا ليتهم يدركون أن المال لا يشتري قطعة من الإحساس.. ولا يصنع الروح.. ولا يعيد الأنفاس.. لقد ظلموه عندما ظنّوا أنه الأساس.. أحاسيسنا أبداً لا تدخل البورصة ولا تعاني الإفلاس.

لم تكن دلال تعرف قبلاً أن جراح الروح لا تخاط... ولا تُضمّد.. ولا تعترف بقانون المسح والإلغاء من قرص الذاكرة.. هي فقط تمرّ بأشواط زمنية للنّسيان.. وتعود من حيث بدأت بدافع الحنين إلى الألم...

لم تكن تعلم أن منديل الدمع ضرب من السراب وأسطورة نصدّقها لأنّها تعوّدنا منذ الصغر أن نصدق الآخرين.. اكتشفت بعد وقت طويل أن الحياة أكبر بكثير ممّا تخيّلتها.. وكل النجوم التي رصدتها بمنظار طفولتها لم تكن جميلة لولا السواد الذي يتربص بها...

فهمت متأخرة أننا نبكي بعينين ونضحك بفم واحد كي لا تنتصر ابتساماتنا على أشجاننا وتنهزم كما تنهزم الأشجار أمام الإعصار...

لململمت نفسها المتناثرة من حولها وتركت لجرحها مساحة شاغرة كي يقول أكثر... لكن الجراح تأبى أن تتكلّم في حضرة الأقدار، تظل منزوية ومتكتمة ومسافرة بأرواحنا... لا لتقتلنا ولكن لتصنع لنفسها بداخلها بيتاً يلائمها.. وتغلق على نفسها كل الأبواب دون أن تترك لنا فرصة فتحها.

بعد وصولها إلى المطار.. دفعت حقيبة السفر واحتفظت بحقيبة يدها الصغيرة وجواز السفر.. ظلت هناك ساعتان بمطار هواري بومدين حتى حان وقت المغادرة.

كانت الواحدة والنصف نهاراً عندما اعتلت الطائرة.. اختارت لها مقعداً أمام النافذة حتى لا تشعر بالملل المتعارف عليه بهذه المركبة التي لا تحب الأرض بقدر ما تعشق السماء.. لربما لأنها لم تجد للهرب من الخوف طريقة أفضل من المواجهة... شيء من هذا القبيل كان يخالجها وشيء آخر كان يحذّرها من المصير المرتقب العاثر بخطواتها الواثقة وجرأتها الخاطئة... بعدما استمعت إلى الاحتياطات المتبعة خلال السّفر من طرف المضيفات... بدأ صوت المحرّكات بالازدياد وازدادت سرعة الطائرة... نظرت من النافذة فإذا بها تحلّق في السّماء... كان شعورها جميلاً وكان خوفها المسبق متلاشياً بين ابتساماتها... كأنما سافرت قبل اليوم مرّات عديدة...

أحياناً نخطئ في تقديرنا للمشاعر.. نظن بها ضعفاً في عزّ قوّتها... ونجهل الكثير عن سطوتها ونفوذها في أوج لحظات

وهنها... لربما تنقصنا البصيرة... ولربما هنالك بين الأسطر في كتاب حياتنا أحرف أخرى وجمل ثانية تأبى الظهور ولو بمجهر دقيق للحدس لا لشيء سوى لأنها لم تدخل قبلاً في مواجهة صريحة مع ما نسميه الشجاعة... لم نمنح فرصة دخول امتحان الشخصية كي نعرف من نحن... جبناء أم أقوياء...

بالفعل لم تكن سفرتها طويلة... دامت يومين فقط... عادت من خلالها بعقد موقع لشركة والدها العزيز... لم تكن تدرك وهي تركب طائرة العودة أن المطبات القدرية أقوى وقعاً على الإنسان من المطبات الجوية... وأن رحلة دامت ساعتين في السماء انتهت بأرواح عائدة من الموت إلى الحياة...

كان هبوط الطائرة مرعباً جداً بعد أن أفصح الطيار أنه سيضطرّ إلى الهبوط الاضطراري قبل نصف ساعة إلّا أنّه استمر وواصل حتى مطار هواري بومدين كي يهبط بدون توازن واضطراب شديد أدّى إلى انطلاق صافرة الإنذار... أسدلت ستار النافذة المجاورة لها... وبدأت نبضات قلبها تتسارع وتتناقص كما كانت هنالك طائرة أخرى بقلبها تطير بسرعة لا يتحمّلها ضغطها الدموي وارتفاع لا تسمح به كثافة السحب بأحاسيسها المرهفة...

مرّت الحادثة كأنها في فيلم أميركي نجا في نهايته كل الرّكاب وانتصر الفرح على يأسهم بعد مأساة ومعاناة لم تكن بطويلة الزمن لكنّها كانت عريضة الشّجن...

كان الشكّ قد خالجها من ذي قبل، لكنها لم تتوقع كم كانت

قصيرة تلك المسافة التي تفصلها عن الأحزان... نعم يحدث أحياناً في الحياة أن يكون الشك واليقين صديقين لكنّهما أبداً لا يلتقيان إلّا في حضرة التساؤل والإبهام الذي عايش النّفس البشرية منذ الأزل... قد يكون الشكّ هو أولى خطوات اليقين لكنّه في غياب الحقيقة يظلّ مجهولاً ومتهّما أنه كذبة شنيعة تنبذها الأقدار احتراماً لسلطة اليقين...

حيال الموت نصبح آخرين... أكثر رعباً من أي وقت مضى... كأنّما الخوف صفحة من كتاب الحياة مرفوضة بداخلنا... مرسوم عليها ألمنا المكتوب والمختوم بشمع الأقدار... لا شيء يضاهي أفراحنا وقت الانكسار وكل أملاكنا وعملاتنا الصّعبة وصفقاتنا الرّابحة تصبح أخفّ من وزن السّراب...

الشعور بالموت خيط رفيع بين النفس والخوف... كأنما يصبح الإحساس بالخوف نفساً ثانية بأرواحنا ترسم لها مساراً أسود اللّون بين جوانح الروح لا تعترف بالبياض وإنّما بالشّراسة والانقضاض على السكينة والطّمأنينة فينا... ما أبشعك أيتها الحياة... وأنت تباغتين وتواجهين... وتنتصرين.

لم يكن قط متوقعاً أن تكون سفرتها الأولى بهذا الصّقيع اللّاذع... من كان يدري أن دلال الفتاة القوية المتمردة تنكسر أشجار الشجاعة في مزارع سلطتها وجبروتها... لكنها زوبعة الأقدار إذا ما بدأت لا تنتهي إلا بحصاد سنابل السعادة في أرواحنا، لتصنع منها رغيفاً يظلّ مُخزّناً إلى أمد بعيد بمخبز الذاكرة...

لم يمر على الوقت سوى نصف ساعة حتى استعادت دلال حقائبها... كان وجهها أصفر شاحباً تكسوه هالة سوداء... وكانت يداها باردتين جداً... لم تعرف ماذا أصابها... أخذت هاتفها الخلوي من الحقيبة لتتّصل بكمال... هذا الرجل العجوز الذي يسهر على خدمة العائلة... وإيصالها بالسيارة حيثما أرادت ووقتما شاءت، بقي الهاتف يرن لكنّه لم يردّ... ازدادت غضباً وازداد وجهها شحوباً، واحمرّت عيناها... وهي متّجهة إلى خارج المطار تمشي بخطوات مضطربة، وصوت حذائها العالي يسمع من بعيد... اصطدمت في آخر الرواق برجل فسقط كلّ ما كان بجعبتها... حتى مشاعرها كانت متهاوية كأوراق الخريف الباكية... انحنت لتجمع أغراضها فمدّ يده ليساعدها...

- ابتعد من فضلك... أعرف كيف أجمع حقائبي.

قال لها في خجل شديد:

- آسف سيدتي... لم أنتبه، كنت على عجل.

ردت عليه باستهزاء:

- بالطبع هاته هي الأعذار المتعارف عليها في أوضاع كهذه.

سكتت هنيهة ثم استرسلت تقول:

- لا والأجمل من كل هذا أنك طموح وتريد أن تصبح طيّاراً... يا لوقاحتك.

- لكن من أخبرك بهذا؟

- هذا يبدو جليّاً من الخطوط الصّفراء الذهبيّة في سترتك... أنصحك أن تتعلّم المشي كي تستطيع أن تمارس الطيران.

ضحك السيّد حتى سالت دموعه من القهر وقال:

- الإرادة تصنع المعجزات فلا تقنطي... ولا تيأسي من رحمة الله.
- وهل أنت ابني كي أقنط وأحزن من أجلك؟ ابتعد عن طريقي أيها المعتوه.

حملت حقائبها... مشت بضع خطوات ثم استدارت بكلّ قوّتها... ابتسمت في وجهه وقالت:

- سأدعو الله لك أن تصبح طيّاراً... وتسقط بك الطائرة... كما كادت تسقط بنا اليوم...
- هل جئت على متن الرحلة ٢١٢٣؟
- وما شأنك أنت... معتوه ومتطفل كذلك...!! يا لغباوتك...

وقفت بضع دقائق في موقف السيارات فإذا بها ترى كمال يأتي مسرعاً إليها ليحمل عنها الحقائب... نظرت إليه نظرة شزراء قائلة:

- لماذا لا ترد على الهاتف؟
- لم أسمعه.... كانت هناك زحمة كبيرة بالطريق وأصوات السيارات كانت عالية.
- حسناً..

- لكن ما بك سيدتي وجهك شاحب... وحقائبك متسخة؟
- وما شأنك أنت أيضاً... هل هذا هو اليوم العالمي للسؤال أم ماذا؟

ضحك كمال منها في نفسه وقال:

- حقّاً، إن السفر قطعة من العذاب.

وصلت دلال إلى منزلها مرهقة... متعبة... وآثار الخوف والفزع لا تزال مرتسمة على وجهها وحتى على هيئتها ومشيتها... وضحكتها التي لم تكن قبلاً مشوبة بكدر...

عانقتها أمها وقبّلتها قائلة:

- ما بك يا دلال متعبة؟
- لا شيء يا أمي... لا تقلقي... أين أبي؟
- استريحي... والدك في العمل... اصعدي غرفتك... خذي حمّاماً... ثم انزلي لتتناولي الفطور... لابد أنّك جائعة.
- أرجوك أمّي كفّي عن معاملتي كأنني طفلة في الخامسة من عمرها... لم يبقَ لكِ سوى أن تعلميني كيف أغسل أسناني، وتحكي لي قصة الثليجة البيضاء قبل أن أنام...

ضحكت الأم بصوت عالٍ وقالت والدموع بعينيها تأبى أن تنزل أمام دلال التي وصلت تواً من السفر...

- ليس لدي أطفال غيرك يا دلال... تمنيت لو رزقني الله ولداً أو بنتاً سواك ويكون لي سنداً في الحياة... لكنّها إرادة الله ومشيئته... فلا مردّ لقضاء الله وقدره يا ابنتي.

- نعم... لا شيء يضاهي حنان الأم في قوته وسلطته... هذا الشعور العظيم الذي لا يعترف بالنهاية... ولا يخضع لقوانين الانهزام والانسحاب والانكسار... هو أقوى من أن نكون أذكياء معه ونمارس معه لعبة المراوغة... كيف سنتحدّاه ولولاه لما ابتسمنا؟

صعدت دلال إلى غرفتها وارتمت على سريرها دون حتى أن تغيّر ملابسها ونامت نوماً عميقاً إلى أن طرق والدها الباب طرقاً عنيفاً ليوقظها...

استفاقت مفزعة قائلة:

- صباح الخير يا أبي....
- إنها السادسة مساءً.
- لابد أنني نمت كثيراً لشدة تعبي يا والدي.
- لا يهمّ... انزلي وأحضري معك ملف الشركة كي أتفقده، لا تتأخّري.
- حسناً... لن أتأخّر.

غيرت ملابسها بسرعة... فتحت الحقيبة وأخذت الملف... نزلت فوجدت أمّها تعد العشاء... قالت لها:

- لقد صعدت إلى غرفتك... وجدتك نائمة فلم أود إيقاظك.
- شكراً يا أمي... سأدخل مكتب أبي لأعطيه الملفات وسآتي لمساعدتك كانت ستضيف كلاماً آخر... لكنها

فضّلت الصمت... لم تودّ إرعاب أمها بخبر الطائرة التي كانت ستسقط... شربت عصير الألم وحدها وذاقت مرارة الحزن بوجبة لم تكن لها الشجاعة أن تتقاسمها مع الآخرين...

لم تكن دلال متمرّدة ومدلّلة فقط بل كانت بداخلها أنثى طيبة خيّرة لا تقدر على إيذاء نملة... ولم تكن حرّة بقدر ما كانت سجينة أحاسيسها المرهفة... ومشاعرها الراقية... لطالما كانت تسيء إلى الخدم بكلمات بذيئة وعبارات سيئة لكنها كانت تعتذر في أغلب الأحيان...

كان بداخلها حزن عميق لأنها لم تمنح حرية الاختيار في الجامعة... ظلت فترة طويلة تبكي إرادتها المسلوبة وتغار من صديقاتها بالجامعة اللواتي يدرسن شعباً اخترنها بإرادتهنّ... لم تكن تدرك كم هي متعبة هاته الحياة... وأن أجمل شعبة ندرسها بها هي الصبر على عقباتها وعثراتها والاستسلام فيها ليس في كل الأحوال ضعفاً... لكنه الرضا على مكاتيب الله التي لو كنا لنختار لما اخترنا ما هو الأفضل...

كما نظل دائماً أطفالاً بعيون أمهاتنا نظل تلاميذ بمدرسة أقدارنا... لا نتخرّج فيها إلا بدكتوراه في علم الأحزان وفلسفة الدموع... وندرك في النهاية أنه ما كان ليصيبنا فلن يخطئنا وما كان ليخطئنا فلن يصيبنا...

- آه منك أيتها الحياة.

سلمت دلال الملف لوالدها، وكلها أمل أن تنال إعجابه وتقديره لها بإنجازها لهاته الصفقة والتي ما كانت لتتمّ لولا حنكتها وذكاؤها في التعامل مع الشركاء... نظر إليها والدها نظرة تنمّ على الغضب قائلاً:

- كلّ الأوراق هنا إلا العقد الذي يحتوي الصفقة والتوقيع... أي إنّ أهمّ ورقة في الملفّ غير موجودة، كاد يغمى على دلال من وقع الكلام الذي سمعته وقالت:
- لكنني وضعتها بنفسي داخل الملف... وأغلقته بإحكام... كيف حدث هذا؟ أين ذهبت؟
- لقد سَئِمَتْ الأوراق الأخرى فقرّرت الرّحيل... هذه ليست لعبة يا دلال... إنها أهمّ صفقاتي... أريد العقد موقّعاً اليوم وإلّا فسيكون لي تصرّف آخر معك...
- ولكن... أبي... لقد...
- انصرفي عن وجهي... لدي أعمال أخرى أنجزها، خرجت دلال من مكتب والدها تبكي من القهر وتنزف... لقد كان قاسياً معها بشكل لم تألفه من قبل... هي تعلم حب والدها وشغفه بالعمل لكنها لم تكن لتدري أنه سيكون سيّئاً معها بهذا الحجم...

لم تعرف وهي تغادر المكتب أين تتّجه... كانت ضائعة وتائهة وكل الأبواب أمامها كانت مغلقة بمفاتيح صدئة كأحاسيسها المهشمة التي داستها أعز الأيادي... دخلت غرفتها باكية... كان

صوت بكائها واضحاً... تراقصت العبرات بانزلاقها من أعلى هضبات خدّيها... حملت القلم لتكتب عن ربيعها الغائب في محاضرة الفصول وتحكي عن آلامها المعلّقة بجدار أحزانها كطفل يأبى أن يفارق أحضان أمّه...

هي لكمة واحدة كانت كفيلة أن ترديها في معركة المشاعر... وأوراق الحنان كانت تتهاوى أمام عينيها كأنما الخريف كلّه كان ينام باكياً بين يديها...

نعم... هي دلال التي لم تنل من ثروة والدها سوى أصدقاء مزيّفين وأعداء يحترفون الإساءة... وآخرون كانت تظنّهم في زمن ما أوفياء لكنهم مخادعون والأقسى من كل هذا هو من تعيش من أجل عينيه لكنك عندما تموت... تموت على يديه...

- آه منك أيّتها الحياة.

نثرت دلال غبار الدمع من على عينيها وجلست مع نفسها تفكر أين اختفت هاته الورقة المشؤومة التي كادت تهوي بها الطائرة من أجلها... وها هي الآن تعيش لأجلها حائرة.

وهي تخمن تذكرت الشخص الذي اصطدمت به في المطار... فتبعثرت كل حقائبها... لكن ما الجدوى إذا كان هذا السيد مجهولاً لا تعرفه... فتحت كل الحقائب وفتّشتها واحدة تلو الأخرى.. وهي على يقين أنّها تبحث عن إبرة وسط المحيط... لم يعد برأسها عقل يفكّر... كانت شبه تائهة تبحث عن شعاع واحد

فقط ينير يومها الحالك بالسواد... بدأت تدور بأرجاء المنزل... في كل الأنحاء والزوايا... كنحلة تجوب الأزهار الواحدة تلوى الأخرى... لكن النحلة كانت أوفر حظّاً منها... فمن يتنقّل بين الأزهار ليس كمن تغيب شمسه في وضح النهار...

وبينما هي خارجة من المنزل متجهة نحو السيارة علها تجدها هناك... إذا بها ترى كمال قادماً نحوها وبيده ورقة ما...

ابتسمت دلال ظناً منها أنها الورقة المرجوّة... انتزعتها من بين يديه مسرعة... لحسن ظنّها أنها لم تكن مخططة...

- أين وجدت الورقة يا كمال؟
- وأنا بصدد تنظيف السيارة وجدتها تحت مقعدك سيدتي
- لابدّ أنها ورقة مهمّة سيّدتي.
- وما شأنك أنت... أكمل تنظيفك ولا تتدخّل في الشؤون التي لا تخصّك.
- حسناً سيدتي... أنا آسف.

دخلت المنزل مسرعة، فإذا بها تصطدم بالخادمة وهي تحمل صينية الشاي... فوقعت كل الفناجين واتسخ قميصها... احمرّ وجه الخادمة من الخجل والخوف قالت:

- آسفة سيدتي... لقد كنت مسرعة وأنا...

ضحكت دلال بصوت عالٍ وقالت:

- .... لا هذا ما كان ينقص... لطخت قميصي الذي ابتعته بثمن باهظ وتكذبين في وجهي... يا لك من وقحة...

احملي الصينيّة واغربي عن وجهي... سأصعد وأغيّر ملابسي... وسأتركه لك كي تنظّفيه... هيّا أسرعي...

سمع والد دلال هذه الضجة، فخرج من مكتبه، سكت هنيهة ثم قال:

- نظّفي قميص دلال جيداً ثم اجمعي أغراضك... لا أريد أن أراك ثانية في المنزل.
- أنا آسفة سيّدي... لن يتكرّر هذا لاحقاً.
- أظنّ أنّك سمعت جيداً ما قلته الآن... هيا انصرفي.

بكت مريم الخادمة التي أفنت عشرين سنة من عمرها في خدمة العائلة... وتعثرت بدموعها وهي تخرج... لم تكن تدرك حجم صغرها وسط أفراد العائلة خصوصاً دلال التي ساهمت في تربيتها وأغدقت عليها من الحب والحنان كما لو أنها ابنتها... لم تقل سلمى شيئاً... لقد تعودت أوامر السيد ناجي التي لا تناقش أو تحلّل كالاتفاقيات التي يفرضها المستعمر الغاشم على الدول المحتلة دون أن يكون لها حق الحوار أو مناقشة القرار... نظرت نظرة حزينة إلى الخادمة وقالت في سرّها:

- اذهبي... من لا يستطيع أن يرحم أقرب الأشخاص إليه... لا يستطيع أن يُحسن إلى أبعدهم.

لا شيء يضاهي دموع الظلم في ثقلها ووقارها وهي تمشي حزينة بين الجفون... كيف لا... وهي المدينة الأقدم ألماً في حضارة العيون... والأعرق تاريخاً على مر العصور...

حملت مريم أغراضها، ورصاصة الشجن تخترق قلبها دون صوت يُذكر... وهي تغادر غرفتها تذكّرت أوّل مرّة اجتازتها بثيابها البالية... وآهاتها المتعالية... بوجه مصفهرّ ضبابي كأنه لوحة زيتيّة لا تصف الشتاء بقدر ما ترثي لهذا الصفاء الروحي الذي تخرّبه عبرات الحزن والعناء...

قدّم لها والد دلال مبلغاً مالياً مُعتبَراً لكنها رفضته... صمتت هنيهة ثم قالت:

- احتفظ بمنديلك في جيبك فأنت في أمس الحاجة إليه مني... وإن كانت أموالك صنعت لك السعادة... فهي لا تستطيع أن تقطف أزهار الحزن بداخلي... لأن الحزن أكبر بكثير من أن يُشترى ويُباع... أو يُقطف فمزارعه أصغر بكثير من أن تُرى بالعين المجردة وأزهاره أكبر بكثير من أن تنالها الأيادي... غضب ناجي كثيراً من هذا الكلام لأنه لم يعتد المواجهة لطالما كان كلامه مسموعاً... ومُطاعاً وأوامره مُلباة في أسرع الآجال الممكنة...

رد عليها بتجهم وكبرياء:

- حتى الثراء الذي عشته في هذا المنزل مدة تفوق عشرين عاماً لم يكن واضحاً كفاية كي يُشاهد أو يُرى.

حان وقت العشاء وكل الخدم كانوا يُسرعون لإعداد

المائدة... إلا مريم التي كانت تُضفي إلى وجباتها الشهية وأطباقها اللّذيذة زبدة الحنان وتوابل الإحساس.

- نعم هناك أشخاص في حياتنا... لا نعرف قيمتهم إلا عندما يغادرون يتركون وراءهم عطراً جميلاً وهم يرحلون... يُحدثون تجويفاً عميقاً بأرض الذاكرة... لا تملأه أتربة الدنيا وجبالها وسهولها وهضابها.

استيقظت دلال صباح الغد... بروح عالية... سعيدة بما حققته من نجاح في سفرتها الأولى... ارتدت ثيابها ونزلت إلى غرفة الطعام لتجد والدها في انتظارها...

- صباح الخير والدي.
- صباح الخير... أسرعي في تناول الفطور... سنذهب معاً اليوم... هناك ملفات هامة أريد أن أُطلعك عليها... تخص الصفقة القادمة.
- ولكن... أنا متعبة اليوم.
- لا تناقشيني... أنا أنتظرك خارجاً.
- حسناً... اذهب أنت وسألحقك بسيارتي...
- إذن لا تتأخري... هناك العديد من الأعمال في انتظارك.

دخلت أم دلال الغرفة... ابتسمت لرؤية ابنتها الجريئة الواثقة بخطواتها في الحياة... عكسها هي التي تربت في عائلة لا تعترف سوى بالرجل وتضع الأنثى في المرتبة الثانية... حتى في العائلات هناك من يطبّق قانون الغابة ويؤمن إيماناً قاطعاً أن البقاء للأقوى...

استطاع والدها أن يجمع مبلغاً مالياً معتبراً كي يدرّس أخواها الأصغر في حين كانت هي تصنع ملابس صوفية بيديها وتبيعها متى تسنّى لها ذلك... مُنعت من الدراسة لأنها أنثى وأكمل أخواها دراستهما لأن والدها لديه نظريّة تنصّ على أن العلم من اختصاص الذكور والجهل من نصيب الإناث كأنه قدرهن المحتوم الذي كُتب بشهادة ميلادهن يوم الولادة..... فالمرأة بالنسبة إليه خُلقت كي تتزوج وتنجب الأولاد فقط... لا أكثر... لم يكن يدرك أن الإنسان الجاهل يفعل بنفسه ما لا يفعله العدوّ بعدوّه ولا يرصد بمنظار جهله سوى نجوم قهره...

الجهل... هاته الحالة المرضية التي يعتبرها الكثير منا حالة اجتماعية عادية... لا يمكن أن يعرف مدى خطورتها سوى الإنسان المتعلّم المثقّف الذي يعرف حجم خسائر هذا المرض الفتاك وعمق مساوئه وأبعاده المظلمة المرصّعة بلآلئ الفشل... أن تعيش وسط مجتمع جاهل فهذا يعني أنّك ستحارب لتعيش سليماً معافى من العقد النفسيّة والخوف والبدع والعادات والتقاليد التي لا تنفع الإنسان بقدر ما تسيء إليه وخصوصاً إلى هذا الدين الإسلامي.

كيف لا ودينا يحث على العلم ويحارب الجهل وأكبر دليل على ذلك هو أن أول آية أُنزلت على رسول الله هي «اقرأ باسم ربك الذي خلق» لقد كانت أم دلال امرأة جاهلة ما جعلها لا تستطيع أن تقف في وجه ناجي المتغطرس صاحب الشخصية السيادية والعنيدة... وتحارب ظلمه واستبداده لها... كيف ستنصف

نفسها وتعرف كيف تميّز بين حقوقها وواجباتها إذا كانت منذ الصغر تعلمت كل حروف الصمت كي تكوّن جُملاً طويلة لتنظم بها أبيات شعر عن الإهانة والوهن وتواجه أعداءها بالخضوع والبكاء لا أكثر... كما لو أنها بُرمجت كي تكون امرأة من الزجاج الرفيع، وتنهي كل حروبها في الحياة برايات بيضاء مزينة بدموع الألم.

نظرت دلال إلى أمها بعيون ملأها الغرابة والحيرة قائلة:

- لماذا تتأملينني يا أمي؟ أنتِ اليوم على غير عادتك...
- لا شيء يا ابنتي سوى أنني تذكرت نفسي وأنا في مثل سنّك... لم أكن جريئة وقوية مثلك... كنت أشبه بريشة متطايرة وسط العاصفة... لا السماء ترضى بخفتي... ولا الأرض تقبل صحبتي...

هكذا كانت النساء آنذاك يا دلال... كل ذرات الأكسجين التي تتنفسها تحسب عليها دخولها إلى المنزل وخروجها... صمتها وكلامها... طريقة لبسها... إتقانها للأعمال المنزلية، وصنع الحلويات التقليدية... كان الأخ الأكبر في العائلة هو الأب الثاني الذي يلقي قراراته على أخته الأصغر منه وعليها هي أن تطأطئ رأسها وتقول نعم لأنه لا أحد أثار انتباهها بأن الطاعة لا تصحّ إلا لله والوالدين... لا أحد استطاع أن ينير طريقها المظلم لأن امتلاك المصابيح وقتذاك كان تعدّياً كبيراً على المكانة

المرموقة والمقدسة للظلام، والأمرّ والأدهى أنّ الأمّ هي من كانت تساعده على هاته السّلطة التي يمارسها والتي لا محل لها من الإعراب في ديننا الإسلامي الحنيف الذي كرّم المرأة وزادها قيمة وشأناً وجعلها راوية الحديث عن الرّسول الشّريف.

نعم... في ظل الأمية والجهل كل الأخطاء العائلية مسموح بها... أن تُهان المرأة وتُجرح وتُكسر ولا تجد صدراً حنوناً يؤويها ويداً تربت كتفها بكلمة عطف صادقة... فهذا عادي جداً...

- عادي... هاته الكلمة التي لا تزال متداولة إلى يومنا هذا... رغبة في تبسيط الأمور في حين أنها زادت الأمور تعقيداً وجعلت من الناس الجهلة أشخاصاً عاديّين لا توجب مواجهتهم... ولا يستلزم توعيتهم لأنهم يعانون أمراضاً ليست معدية وفيروساتهم ليست بقاتلة... فقط هم يمرّون بحالة رشح من الممكن تجاوزها بحبة دواء مضاد للصداع...

صمتت قليلاً ثم أردفت تقول بقلب مكبّل بالآهات:

- كانت كرة العدالة بعيدة جداً عن مرمى طفولتي ومراهقتي وحتى بعد زواجي بوالدك... بقيت هدفاً مستحيلاً...

أطبق الحزن على ملامح دلال ثم استرسلت تقول:

- ولكن والدي يعاملك باحترام يا أمي... لم أره قط يهينك

أو يسيء إليك كما أنه كلما ربح صفقة جديدة أهدى إليك قطعة ثقيلة من الذهب...

ضحكت سلمى من ابنتها دلال ضحكة تمتزج بالأسف قائلة:

- لكنني لست سعيدة بهدايا والدك... أنا قط لم أكن سعيدة.

بكت سلمى بكاء اليتيم يوم فقدان أبويه... بكاء الحزين والمسكين... لربما كانت تود أن تقول شيئاً لكنها صمتت. فعمر الصمت بحياتها أطول من عمرها وأقوى من ضعفها... ومسرحية العتب على أقدارها أكبر من أن تحتويها صفحات الدهر... اغرورقت عيون دلال ووجدت نفسها بدلاً من أن تجلس قبالة أمها على الطاولة تواجه إحدى القضايا العالقة بهذا المجتمع الذي حارب من أجله العلّامة عبد الحميد بن باديس ليكون أكثر وعياً ممّا هو عليه ويستطيع بثقافته أن يناضل ضد أحزاب الجهل وطوائف الأمية العمياء...

استرسلت تقول:

- مزاجك اليوم سيئ يا أمي... سأنهي عملي مساءً... وسنخرج ثلاثتنا أنا وأنتِ وأبي للعشاء معاً... ما رأيك...؟

لم تكمل دلال كلامها حتى رن هاتفها... إنه والدها اتّصل ليستعجلها المجيء... قبّلت أمها من جبينها... حملت حقيبتها السوداء لـلويس فيتون ووضعت عطرها الفرنسي لشانيل... وساعتها السويسرية Rolex... دون أن تنسى نظارتها لـRoberto Cavali.

صعدت سيارتها الفخمة الألمانية الصنع من نوع مرسيدس...

واتجهت إلى الشركة مخلفة وراءها امرأة جزائرية الصنع ما زالت تعاني خراباً بالذاكرة وخيبة قاسية كان من الممكن تداركها لولا أن المجتمعات المتخلفة كالصانع المهمل يلقي دائماً اللائمة على أدواته.

دخلت الشركة وسط حشد غفير من العمال والإداريين الذين يحسدونها على جمالها وأنوثتها وثرائها الباذخ الذي تقبع فيه... فتحت مكتب والدها... فوجدته يحتسي القهوة... عاتبته قائلة:

- قهوة في المنزل وأخرى في العمل... كان ينقص أن تكتب القهوة في بطاقة هويّتنا نحن الجزائريين يا أبي... لقد نصحك الطبيب بالتقليل من استهلاك هذا الأفيون المهلك بالصحة والمثير للأعصاب...

فردّ عليها بتجهم شديد:

- دلال... سأعطيك ملف الصفقة القادمة... أود منك دراستها ومعرفة النسبة المضبوطة للأرباح... والخسائر التي ستنتج منها... ومن ثم أود منك أن ترافقي والدتك إلى منزل صديقي سامي.
- لماذا يا والدي...؟ هل من خطب...؟!
- لقد توفي صباح اليوم وسيتم دفنه بعد صلاة الظهر... هاتفي أمك وأخبريها من أجل واجب العزاء... صُعقت دلال لهذا الخبر... لقد كان سامي أكثر من صديق لوالدها... كان الأخ الذي لم تلده أمه والسند الذي يتكئ

عليه إذا ما غدرت به الحياة... كان المنديل الذي يمسح به دمعه ويداري به آهاته وقت الانكسار... ليس هذا فقط بل إنه لطالما تكفل بالعائلة زمن الأسفار الطويلة لناجي... بكت دلال بمرارة وأحست أن الطيبة بالدنيا كلها ماتت يومذاك... لأنه كان طيباً أكثر مما ينبغي وحتى أكثر من والدها الذي لم تنزل له دمعة عليه عُربون محبة ووفاء لهذا المشوار الطويل... تأسفت كثيراً لأن والدها لم يكن يملك ما يلزمه ويكفيه من الشعور كي ينجح في بورصة الإحساس ويوفق في شراء أكبر عدد من أسهم الحنان.

- أن تكون ناجحاً فهذا لا يعني دائماً أنك على صواب واستقامة فالكثير من رجال الأعمال الناجحين لا يهمهم مصدر أرباحهم... حلالاً كان أو حراماً فهذا بالنسبة إليهم لا يعني الكثير ولا يهم بتاتاً... مقاصدهم أولى من منطلقاتهم، يعيشون بقانون الغاب... الفوز للأقوى، لا يدركون أن لعبة الحياة لها قوانين وقواعد ونظام محدد تسير عليه أرقى من أن يشوهها الأغبياء مثلهم... هم ليسوا إلا بأغنياء المادة فقراء الروح... لحظة تخونهم الحياة يفهمون أن الطريق إلى السعادة هي ليست نفسها الطريق إلى الطمأنينة والسكينة فالفرق بينهما كبير وشاسع... وهو واضح لا غبار عليه... فقط أطماعهم وطباعهم التي

تحبذ الأشكال على مضمونها وتولي الأموال أهمية على الأخلاق هي سبب القتامة والسواد اللذين يغرقون فيهما.

كم أنت مؤلمة أيتها الحياة... وأنت تحاربين وتواجهين وتنتصرين ولاستسلامنا وانكساراتنا تبتسمين... بكت في نفسها والمرارة تقتلها آلاف المرات... مرة على سامي الرجل الطيب ومرة أخرى على صديقه الذي هو والدها صاحب الشركات الضخمة والعواطف التي تعيش في العتمة...

...تذكرت حصة The big looser الحصة التي تساعد البدينين على فقدان الوزن فقالت... يا ليتها كانت هناك حصص تساعد الأشخاص الماديين على فقدان مواطن اللّاشعور بأرواحهم.

غادرت دلال الشركة وحبات الألم تجول بداخلها شريدة... وبحر السكينة يخنقها بمده وجزره مرات عديدة دون أن يقتلها.

في زمن المشاعر المنطفئة... تفقد الروح الإنسانية الكثير من جمالياتها، لا وأكثر من ذلك... بل وإنها تصبح كطائرة ورقية تترجح بين آهات العاصفة ولا يبقى للبرق والرعد وقتذاك صوت يشبه صوت الغضب بداخلنا لأن أحزاننا وآلامنا وقتذاك تستقيل من مشاعرنا كما لو أنها كانت أزهاراً برية تموت وتذبل لأنها غرست وسط تربة مالحة وسُقيت بمياه غير صالحة... وتنفست شيئاً يشبه الهواء لكنه بعيد كل البعد عن النقاء والصفاء...

بين امرأة تعيش الماضي بكل تفاصيله المؤلمة في حاضر

رناته غير منسجمة ورجل لا تهمه الأزمنة والأمكنة بقدر ما تستهويه الصفقات والمبيعات والأثمان ترعرعت دلال والتحم تمردها وكبرياؤها بضعفها وانحنائها... وظل حنانها يجول غريباً متمرداً بين حنايا شخصيتها المتذبذبة أحياناً والقوية الصارمة أحياناً أخرى.

دخلت المنزل وفمها مدجج بالكلام... وجدت أمها في الصالون تطالع الجريدة.

- لقد عدتِ اليوم باكراً يا دلال.
- نعم... لقد... هناك خبر..
- ما بك يا دلال... ما الخطب...؟
- لقد توفي عمي سامي.
- سامي صديق والدك...؟؟
- نعم سيتم دفنه بعد صلاة الظهر...
- حسناً... سأجهز لكي نقوم بتعزية أولاده وزوجته... رن هاتف دلال... لقد كان والدها....
- نعم... أبي.
- هل ذهبت وأمك كما أوصيتك.
- نحن بصدد الذهاب.
- حسناً... اذهبي وعودي بسرعة... محاسب الشركة بانتظارك سأبدأ معه معاملات المحاسبة ريثما تعودين...
- لماذا... ألن تحضر الجنازة...!!
- لا وقت لدي..

- ولكن والدي... لقد كان سامي أخاً لك... ولطالما...

قاطعها بلهجة عنيفة تنتقص إلى الكثير من اللباقة...

- لا تتدخلي يا دلال... والتزمي حدودك...

لقد كانت كلمة التزمي حدودك بالنسبة إليها قاسية جداً لأنها كانت تعتقد أن كلمة الحدود توجد فقط بين الدول وبين الولايات وبين القارات وفي الفواصل بين الكلمات... لم تكن لتدرك أن أصحاب الأموال الطائلة لهم حدود خاصّة وشخصية جداً... حتى وسط عائلاتهم ومع أقرب الأشخاص إليهم... وبينما كانت عينها اليمنى تبكي عمها سامي... كانت عينها اليسرى ترثي لحال والدها صاحب القلب الأعمى الذي يقبع في مكان مظلم يظنه الأجمل والأسمى وتواصل مسارها العاطفي نحو الدمار ككوكب منفي هارب من المدار...

الجرح فينا أصيل أصالة الروح وعميق عمق القروح... ولا يمكن له أن يلتئم بين ليلة وضحاها... هو مرض يصعب تشخيصه وورم ليس من الصعب استئصاله... لا ينفذ من أقطار الروح بسهولة فأبواب السعادة في حضرته مغلقة صدئة... وجيوش اليأس لطالما كانت بساحاته منتصرة...

لملمت دلال نفسها وببعض الإرادة المسلوبة المنهكة غادرت منزل صديق والدها وقد اكتشفت ملامح جديدة لا ترضى إلا بوجه تعيس لموت مفاجئ... كيف لا وهي شاعرة تخبئ كل الحياة بين أوراقها وتخفي ابتساماتها الغاضبة بين السّطور. كيف ستستأصل

جوارحها من قلب القصيدة وتعيد إلى كلماتها هذا الفرح المبتور....؟

دخلت منزلهم الفخم وهي على يقين أن للغضب مشاريع أكبر من أن تستطيع النفوس الضعيفة دفع تكاليفها أو تحديد ميزانيتها...

كان ناجي هناك يمارس الرياضة ويحتسي مشروب الأفوكادو الذي يعشقه... سألته إذا كان ذهب فلم يُجبها.

نظرت إليها أمها بحزن عميق وقالت:

- لا تكترثي له يا دلال ولا تعطي الأمور أكثر من أحجامها... هو هكذا كل شيء لا يجلب له المنفعة ولا يخدم مصالحه ليس بالمهم... عادي.
- أمي... من فضلك... تعرفين كم أنبذ كلمة عادي فلا ترددیها أمامي....

تطايرت شرارة الغضب من عيونها وانتفض قلبها من بين ضلوعها...

صعدت غرفتها مسرعة مخلفة وراءها سحابة ماطرة فوق عاصمة الحب بعيون والدتها... أخذت ورقة وقلماً كعادتها وأخذت تخط كلمات ليست جريئة بقدر ما هي بريئة من الاسوداد الذي تخلفه وراءها وهي تمشي على الأوراق مختبئة وراء ألمها العتيق... كتبت تقول:

- الموت يدهمنا في ساعات متأخرة من ليل الحياة ويرصد لنا بمنظاره أشخاصاً نحبهم لا يفقهون شيئاً عن

الإحساس... تساورهم شكوك حول جنسيته... هويّته... مصداقيّته... لكأنه كائن غريب يحط الرّحال بأنفسنا دون سابق إنذار.... كأنه عاصفة أو إعصار...

أشخاص لا يعرفون عن الحب شيئاً... ولا عن الوفاء شيئاً... هم لصداقاتهم يتنكرون ويتهرّبون ومن أجل مصالحهم الشخصيّة يحاربون...

كانت بعض الكلمات هاته كفيلة بأن تجعل من دلال امرأة غارقة في بحر المعادلات الصعبة لهاته الحياة... وهي تركض في متاهات العمر حافية القدمين غير آبهة للعراقيل التي تواجهها... استفاقت على وقع طرق الباب... لقد كانت ابنة عمها نادية التي تقربها سنّاً وتشبهها شكلاً كذلك...

- أهلاً نادية... متى عدتم من السّفر...؟
- منذ يومين... كيف حالك دلال... لقد اشتقت إليك وإلى حكاياتك ومغامراتك التي لا تنتهي.
- حكاياتي نعم... لكن مغامراتي...!! أنت تبالغين يا نادية....
- هيا قومي... سنذهب إلى نادي الفروسية... ارتدي ملابسك هيا....
- ولكن... لقد كنت البارحة هناك....
- سنذهب إلى النادي.... ومن ثم سآخذك إلى المنزل كي أريك مشترياتي من سويسرا...

- حسناً... أمري لله.
- سأنتظرك في البهو.... لا تتأخري.

ارتدت دلال لوناً آخر أجمل من الذي كان يعتريها قبل قليل وجهّزت نفسها لامتطاء خيلها الأسود الذي اشتراه لها والدها هدية في عيد ميلادها المنصرم... وجدت عمّها وزوجته في الصالون فسلمت عليهما وهمّت بالخروج... ناداها عمها سمير قائلاً:

- تعالي دلال لتتناولي الشكولاتة السويسريّة.

اقتربت من الطاولة فإذا بها تندهش من كمية الشكولاتة الموجودة فوقها... قالت مستغربة:

- ما كل هذا يا عمي...؟ لقد عدت إلى الجزائر تاركاً وراءك سويسرا تعاني من أزمة شكولاتة... ضحك سمير واستطرد يقول:
- هذا بدلاً من أن تشكريني... تتهمينني بإحداث الأزمات... فتحت دلال قطعة الشكولاتة... فإذا بها تجدها مرفوقة بورقة مكتوب عليها باللغة الإنجليزية:

"I destroy my enemies when I make then my friends"

Brahim Lincon

قرأت دلال الحكمة بصوت عال مترجمة إياها باللغة العربية...

«أتغلب على أعدائي عندما أجعل منهم أصدقائي»

إبراهيم لنكن

ابتسمت واسترسلت تقول:

- هكذا هي الحياة يا عمي... دول تبيع الشكولاتة مرفقة بالحكمة... ودول أخرى تبيع أفكارها وحكمتها وحتى أصالتها ومبادئها من أجل حبة شكولاتة...
- ماذا تقصدين يا ابنة أخي؟
- أقصد أولئك الذين نسمع عنهم كل يوم ونشاهدهم في التلفاز... يقطعون البحار والمحيطات بزورق صغير للموت رغبة في الحياة... في الماديات، في الرفاهية العمياء، مخلفين وراءهم أكباد أمهاتهم تحترق خوفاً عليهم.... وشوقاً إليهم....

من لا يُحب أمه لا يستطيع أن يُحب وطنه.... أين أنت يا محمود درويش كي تقول لنا:

«أحن إلى خبز أمي....
وقهوة أمي...
ولمسة أمي
وتكبر فيّ الطفولة يوماً... على صدر يومِ
وأعشق عمري لأني إذا مت... أخجل من دمع أمي...»

- يا لهم من تعساء... أغبياء لا يعرفون أن أجدادهم ماتوا من أجل أن يعيشوا هم.... وحاربوا كي يضفروا هم بالحرية والانتصار...

قاطعهم عمها قائلاً:

- لكن الفقر يعمي الأبصار يا دلال، والقهر يفقأ العيون...
- الفقير الحقيقي هو من يبيع أمه وأقاربه وأصدقاءه ووطنه كي يعيش وسط الغرباء...
- أتعلم كم شخصاً ماتت والدته أو والده وهو بعيد في الغربة... وكم شخصاً هناك يعيش حالة فقر مدقع.... يتمنى لو يعود إلى وطنه لكنه لا يستطيع... لأن هجرته لم تكن شرعية.... هو الذي حارب كل العواطف بداخله وجعلها سجينة لرغباته الدنيويّة كي يظفر بحياة لا تلائمه أخلاقياً ولا دينياً... لماذا يعجز شبابنا عن ممارسة الفلاحة والعناية بهذا القطاع... بينما يعملون جاهدين على مغادرة الوطن قدر المستطاع... متى سيعرف الجزائريون الذين لا يحفظون نشيد «قسماً» أن مفدي زكريا كتبه بدمه وهو في سجن بربروس، لماذا لم يكن مفدي آنذاك يفكر في الهروب... بل كان يعقد العزم أن تحيا الجزائر....؟

متى سيعرفون أن أعظم درس في الإسلام هو الأخلاق ويتبعون منهج عبد الحميد بن باديس في تحدياته ضد الجهل والأمية وطمس الشخصية الجزائرية. هل كان لهم أن يحبوا الجزائر كما نحبها...

- يا لهاويتنا كم هي واسعة....

غادرت دلال قاعة البهو مخلفة وراءها الكل حائراً في هاته الفتاة التي وُلدت كي تكون كبيرة وعظيمة بمبادئها وأخلاقها...

وصفاء نيتها... فبرغم تمردها وغطرستها إلا أنها كانت تعشق الجزائر وتحفظ الأغاني الوطنية عن ظهر قلب وتكتب قصائد عن هذا الوطن علها تشفي غليلها من أعدائه......

ابتسمت نادية في وجه دلال وقالت:

- أنا فخورة بما قلته يا دلال.... إنك صاحبة شخصية قوية وفولاذية.

صمتت دلال هنيهة ثم أردفت قائلة:

- آه..... لقد تذكرت...... لدي موعد اليوم....
- مع من؟
- مع شركائنا الجدد... لقد ضرب لهم أبي موعداً هذا المساء... حسناً... سأبذل ما في وسعي كي لا أتأخر.
- لطالما أردت أن أسألك يا دلال عن شيء....
- ماذا؟.....!!
- ألا تشعرين بأن المسؤولية التي تقومين بها في إدارة شركات عمي ناجي أكبر من سنك وحتى استطاعتك... أم أنك قد تعودت هذا العمل.

صفنت دلال هنيهة وهي تواجه هذا الكبت الدفين بداخلها ببضع العبارات المتناسقة والمتناهية الدقة.

- لربما أحببت العمل.... ولربما كذلك تعودته... ولكن أن يكون هذا أكبر أو أصغر من سني واستطاعتي فهذه فكرة لم تخطر على بالي من ذي قبل... لقد وُلدت وأنا

أحمل القلم وأكتب بين طيات دفاتري الحياة بكل ألوانها وأشكالها وعندما أرغب في نسيان شيء... أمحوه بممحاة الذاكرة... حتى كبرت ودرست الاقتصاد مرغمة كغنيمة تقاد إلى المذبح دون أدنى شعور... ترعرعت في وسط يرأسه الصمت وتحكمه قوانين الخضوع لذلك وجدتني أكتب عما يدور حولي من أشخاص وأفعال وحتى أوطان... كغريب أراد أن يجلس أمام المدفأة لا ليتدفأ ولكن لأنه متيقن أنه سيكون أكثر وحدة وحزناً كلما ابتعد عنها... حجبت سحابة الشعور كل الأنوار بطريق نادية وتنهدت بعمق يائس... بشجن... وقالت:

- أنتِ تولين الأمر أكبر من حجمه وتعيرينه اهتماماً زائداً... لقد أخطأت عندما سألتك...
- حسناً... لقد وصلنا...

همّت دلال ونادية بالدخول إلى نادي الفروسية... تقدمت دلال نحو حصانها متأملة انسدال شعره الحريري على وجهه كما تنسدل الكلمات على الشفاه... نظرت إليه نظرة حب عميقة... تذكّرت أوّل مرة امتطته فيها... كان صغيراً وهي بدورها كانت صغيرة... وأصغر بكثير من أن تفقه الحياة بتضاريسها الصعبة وطرقاتها الملتوية...

نطقت نادية مستعجلة دلال:

- هيا لننطلق... إلى ماذا تنظرين؟

- أتأمّله.
- من؟
- حصاني.
- امتطي حصانك ولنؤجل حصة التأمّل لفرصة قادمة.

إنه يشبهني إلى حد بعيد... هو يركض في الساحات الخضراء للطبيعة... وأنا أركض في ساحات العمل المريعة... هو لا يخطو خطوة إلا بإذن من فارسه وأنا بدوري لا أقوم بشيء سوى بموافقة من والدي... هو يمارس رياضتي التحمل واجتياز الحواجز وأنا منذ الصغر تعودت تحمل هذا الفائض العاطفي بداخلي وأجتاز الأيام الماطرة بمظلة هي أصغر بكثير من أن تحميني... وهي بصدد امتطاء حصانها إذا بهاتفها الخلوي يرن ليكسر سلسلة الأفكار التي تكبّل ذاكرتها وينتشلها كغريق غادر نهر الموت تواً ليلتحق ببحر الحياة... لقد كان والدها يستعجلها الحضور، سارعت دلال في العودة إلى المنزل بعدما اتصلت بكمال الذي جاء كالبرق إلى النادي... ركبت سيارتها والحسرة تشل أنفاسها وتقتلع عواطفها من الوجدان.

اتجهت مباشرة إلى المنزل كي تغير ملابسها وهي في الطريق استوقفها مشهد رجل وزوجته وطفل صغير يمشي بجانبهما لا يتجاوز الخمس سنوات... كان ذلك بالنسبة إليها شيئاً جميلاً... هي التي باتت تحلم بأن يكون لها أسرة وزوج وأولاد تداعبهم وتلعب معهم كطفلة صغيرة...

لم تتعلم من الحياة شيئاً سوى كيف تحضن دميتها وتقبلها... حتى سلمى أمها التي لطالما كانت تحكي لها عن خيبات ومحطات حياتها السوداء وحاضرها وماضيها الذي سرق أجمل سني عمرها لتعيش الثرية البائسة كما تظن جازمة... لم تكن تعارض ناجي على رفضه الدائم والمتواصل على زواج دلال لأسباب لا تفهمها... كونها صغيرة... غنية جداً... جميلة حقاً... والأهم من كل هذا... أنها الوارثة الشرعية والوحيدة لشركات والدها. لم تكن دلال تستوعب فكرة تأجيل زواجها الذي يستلزم شراء العريس ووجاهته وتوافقه والمصالح الشخصية لناجي... كي لا يطمع في الاستيلاء على كل الثروات بسهولة ويجعل منها رهينة لسيادته لكنها وقد تجاوزت الثلاثين من العمر... أصبحت تحن إلى الشعور بالأمومة...

هذا الشعور الغريزي بالفطرة والذي يختزل رغباتها ويستخرج من باطنها... تلك الأنثى التي تبحث في قاموس حياتها عن الأمومة ولكنها لا تجدها سوى في منازل الآخرين ولا تسمع بها سوى في بكاء الأطفال الذين يمرون أمامها في الشارع ويقطفون أزهار الرصيف التي لم تكن لتكون جميلة لولا براءة عيونهم... لوهلة تذكرت أن كمال... هذا الشخص الذي تجاوز الستين هو بدوره تزوج منذ ثلاثين عاماً... ولم يرزق أولاداً ودون أن تشعر وجدت نفسها تسأله لكن الكلمات تبعثرت بين شفتيها كما تتبعثر حبات اللؤلؤ عند انفلاتها من خيط العقيق... استجمعت بعضاً من

أنفاسها وحاولت جس نبضه فيما يخص هذا الموضوع قائلة بتردد واضح:

- هل هو صعب أن يعيش الإنسان بدون أطفال؟
- هل تتحدثين معي آنسة دلال؟
- نعم يا كمال... أنا أسألك عم إذا كان من الصعب على الإنسان أن يعيش بدون أطفال؟
- بالطبع... يكفي أن نظرة الناس إليه تؤلمه... وشعوره الدائم بأن...

عمت لحظات صمت كئيبة السائق العجوز وهو يفتح أبواب قلبه الملتهبة لا لِيُطفئها ولكن ليزيدها احتراقاً باعترافاته.

لم تحاول دلال إرغامه على الحديث... احترمت صمته... رجولته... سكوته الهارب من أبواق حزنه... لمست بداخله رجلاً آخر غير السائق الذي تعودته كان السؤال كفيلاً بأن تكتشف مغارة بؤسه المحفوفة بأودية قهره... حاولت تغيير الموضوع لكنه كان قوياً كفاية واستطاع أن يرد عليها بحكمة البليغ الذي أطعمته الحياة كل ما لذ وطاب بعد أن فقد كل أسنانه...

- هكذا هي الأقدار آنسة دلال... كُتب عليّ ألّا أُرزق أطفالاً لكنني رزقت الصبر... وكتب علي ألّا أُكمل تعليمي لكنني رُزِقت عملاً أتقاضى منه في الشهر ما يكفي آخرين كي يعيشوا سنة كاملة... حظيت بأصدقاء أوفياء وطيّبين في حين أن إخوتي الأربعة لا يسألون عني إلا قليلاً أو نادراً.

ابتسمت دلال ابتسامة تنم عن قهرها وسخطها من الحياة... قائلة:

- القناعة هي الطريق الوحيدة المؤدية إلى السعادة... غمغم كمال متنهّداً تاركاً دلال وراءه تقطع الشك باليقين وتتيقن أن مملكة الشعور لا تكتمل إلا بإحساس الأبوة والشعور اللامتناهي بالأمومة.

نزلت مسرعة من السيارة... غيرت ملابسها... وضعت قليلاً من الكحل في عينيها وبعضاً من أحمر الشفاه على شفتيها... حملت حقيبتها الجلدية... انتعلت حذاءها ذا الكعب العالي ووضعت نظارتها السوداء ثم أسرعت نحو الشركة لكي تكون أُماً لكل الصفقات إلا لصفقاتها المستحيلة مع نفسها والتي لم تمنحها فرصة الاستمتاع بابتسامة طفل صغير.

طرقت باب قاعة الاجتماعات مستأذنة... دخلت بهدوء تام لأنها تأخرت نصف ساعة عن الموعد... فتحت العقد وبدأت تراجع بنوده سرّاً، نظر إليها والدها بعينين يبدو التأنيب واضحاً عليهما قائلاً:

- أعرّفك بالأعضاء.

- انتابها القلق وهي تعدّ الأعضاء معه بعيونها لقد كانوا عشرة والصفقة كانت ستكون رابحة أكثر لو كانوا أقل... استوقفها أحدهم وهو يقترح ثمناً رخيصاً للسلعة مصراً على عدم التفاوض... فتدخّلت كي تعلّمه أنه من شروط

إبرام الصفقات هو التفاوض بطريقة هادئة دون تعصب والوصول إلى اتفاق كامل بين الأطراف فيما يخصّ الأسعار والمعاملات وحتى تاريخ تسديد المبلغ وبالتالي إبرام العقد بالتراضي... نطق أحدهم قائلاً:

- لكن... من هذه؟... ومتى تعرف النساء عن التجارة أكثر منا نحن الرجال؟

أثارت وقاحته فضول دلال... أرادت أن تسأل عن اسمه لكنها آثرت أن تجيب عن سلوكه بدلاً من الاستفسار عن هويّته... واصلت كلامها قائلة:

- أتستطيع أن تقنعني أنك إذا مرضت فإنك سترفض أن تعاينك طبيبة امرأة... أو أنك لن تدع أولادك يدرسون على يد معلمة امرأة... هل تقنعني أنك لن تشتري خبزاً إذا وجدت البائعة امرأة؟ أو أنك مثلاً لم تكن لتحضر الصفقة إذا علمت أن أهم عضو فيها هو امرأة.... فهم السيد من الجملة الأخيرة أنه أخطأ القول وأنه بالفعل يحادث أهم طرف في الجلسة المنعقدة فاعتذر مسرعاً:

- آسف آنستي... لك كل تقديري واحترامي... ثم نظر إلى السيد ناجي محاولاً معرفة هاته الآنسة الجميلة والأنيقة والتي تجلس في الجانب الآخر من الطاولة فأخبره السيد ناجي أنها ابنته... وهي المديرة العامة لكل شركاته فاعتذر منها مجدداً مبدياً إعجابه بحنكتها وسلاستها في تسيير

الصفقات وتمكنها من إرضاء جميع أطراف الصفقة رغم عددهم الكبير... قبلت اعتذاره وحاولت أن تجد مبرراً يغفر له تطاوله وتنازله من رجل أعمال يحسن إدارة أعماله إلى رجل تافه ينظر إلى المرأة بمرجعية القوة والتعالي.

أحياناً نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع أشخاص لا يحسنون التمييز بين الجنسيات ولا يعترضون عما تقول إذا كنت رجلاً حتى ولو كنت على خطأ في حين أنهم يحاربون سداد رأيك ورجاحة عقلك لو كنت امرأة...

ينظرون إلى الأنثى بأنها أدنى مرتبة من الرجل وأقل قيمة وشأناً ويستصغرونها حتى ولو كانت تحتل مكاناً مرموقاً وعالياً... لا لأنها ضعيفة ولكن لأن قوتها تؤذيهم...

يريدون منها أن تكون ربة منزل جيدة... وطباخة ماهرة وسيدة مجتمع أنيقة... شرط أن لا تتطاول على آرائهم وأفعالهم كي لا تخدش كبرياءهم بمبدأ الدفاع عن الرجولة... هاته الكلمة التي هي بالفعل أكبر بكثير من أن تنسب إليهم...

انتهت الصفقة بسلام على الجميع إلّا على دلال التي كانت تتبنى أسئلة فلسفية لمخيلتها علّها تجد بعض الحلول لبعض المشاكل العويصة التي تخنق المجتمعات العربية دون أن تقتلها كالعادات والتقاليد البالية... الانحلال الأخلاقي... أمراض النفس بتنوعها... المرأة التي تحولت من إنسان خلقه الله وأكرمه إلى قضية شائكة اختلقها الإنسان وجعلها حدثاً اجتماعياً يصعب فهمه مع أنه

كان سيكون سهلاً لو تمسّكنا أكثر بديننا... بإسلامنا... وبمصحفنا الشريف الذي عامل المرأة على أنها جوهرة نادرة ويجب الحفاظ عليها... وحسن المعاملة إليها... ثقافة الاعتذار التي تنقصنا أحياناً... أم أننا نتحاشاها كونها تجرح كبرياءنا وتزيد من اتساع رقعة الأوزون بسمائنا.

خرج جميع من حضر الصفقة عدا السيد أحمد الذي كان أكبرهم سنّاً... وأكثرهم جاهاً وحكمة... ابتسم لدلال قائلاً:

- هل تحبين لعبة الشطرنج؟

استغربت سؤاله في بادئ الأمر لكنها باغتته بجواب مفخخ لا لتحرجه ولكن لتتعرف إلى مواطن الضعف والقوة بأعماق فكره... فتكتشف إذا كان مظهره الدبلوماسي يشي بالفطنة والكياسة أم بالغباوة ونقص السياسة...

- رأيي في لعبة الشطرنج هو نفسه رأي المهاتما غاندي فيها.

ردّ عليها قائلاً:

- أظن أن المهاتما غاندي لم يكن يحب تعلم لعبة الشطرنج لسبب بسيط هو أنه لم يكن يريد أن يقتل جيشه كي يحيا الملك...

ابتسمت دلال ابتسامة عريضة وشعرت بغبطة كبيرة متمنية لو أن كل أعضاء الصفقة كانوا بالمستوى الثقافي الذي يتمتع به السيد أحمد....

رتب أوراقه ووضعها في محفظته... وهمّ بالذّهاب... لكنه استدار ليضيف شيئاً:

- كنت ستحبينها وتقتلين كل جيوشك لو كان الملك شخصاً عزيزاً عليك...

كان وقع العبارة مربكاً بالنسبة لدلال التي أزاحت قناع الحقيقة عن هاته اللعبة التي يشبّهها الكثير منّا بالحياة... وتساءلت عم إذا كان هناك ملك يستحق حقّاً كل هاته التضحيات كي لا يكون أوّل من يغادر المعركة... ولكن ليكون آخر من يموت فيها.

غادر السيد أحمد مخلفاً وراءه دلال تعيش عمراً من التساؤلات لتجد نفسها سجينة لتجاربها الصغيرة في الحياة... كيف لا وهي التي لطالما اعتقدت أنّ أحاسيس الإنسان تشغل حيزاً واسعاً من تجاربه... لأن التجربة كفعل نمارسه أو حدث نعيشه تخضع لردة فعل نابعة من قوة الفكر وحجم العاطفة التي نمتلكها ولكن ما أجمل أن ندع شمس تجاربنا تتسلّل عبر نوافذ حياتنا كي تمدّنا بأنوار حكمتها دون أن تقتلعنا من جذورنا وتغيّر مبدأ الأصالة فينا بحدّة أشعّتها... كان اليوم خميساً ماطراً عندما استيقظت دلال عند الساعة الرابعة صباحاً... كي تحضر نفسها من جديد للسّفر وبقلب يرتعش وأنفاس تنسحب من صدرها بصعوبة... لملمت آخر ما تبقى من المستلزمات، ارتدت ملابسها... حملت حقيبتها

ونزلت لتجد أمها مستيقظة هي الأخرى.... كي تودعها بعيون بائسة... باكية:

- صباح الخير أمي...
- صباح النور عزيزتي...

صمتت هنيهة وهي تتأمل شحوب أمها وعيونها المغرورقة بالدموع فعانقتها قائلة:

- هذه ليست أول مرة أسافر يا أمي عدا أنني لن أسافر وحدي... سيكون والدي معي... بالمناسبة أين هو...؟
- إنه يصلي... اشربي قهوتك ريثما يأتي.
- أرجوك يا أمي امسحي دمعك... لن تدوم سفرتنا أكثر من ٣ أيام.

خرجت سلمى عن صمتها قائلة:

- هل تعلمين شيئاً... هذا القصر الذي نعيش فيه هو أبشع رقعة على وجه الأرض وأنت بعيدة عني يا دلال...

لم يعد بفم دلال كلام تقوله وهي تحتسي قهوة الصباح ممتزجة بعبرات أمها لتصبح أكثر سواداً ومرارة... ابتسمت لهذا الحب الكبير الذي تكنه لها والدتها ابتسامة مرّت صدفة بملامح وجهها كعابر سبيل تائه...

الحب لا يقاس بالعبرات ولا حتى بالنظرات... أو كما اعتقدنا دائماً بعدد الآهات وطول السنوات... الحب هو تلك المسافة التي تقطعها الرصاصة من ضفة الحياة إلى ضفة الموت فوق جسر

العبرات... هو تلك الابتسامة الحزينة التي نكوّرها على عجل كي نقذف بها في مرمى الاحتضارات لا لنسجل أهدافاً كثيرة ولكن ليعرف الحزن أنه لولا ابتساماتنا لما كان الدهر سوى لحظات....

استعجل ناجي ابنته قائلاً:

- لقد حان الوقت سنتأخر عن موعد الطائرة... شعرت دلال بدوار وهو يذكر الطائرة... تذكرت ما حصل لها المرة السابقة... كاد يغمى عليها من وقع الذكرى على أرجاء نفسها... أحست أن هنالك بداخلها شيئاً يتحطم كانت قد رمته تواً... أسندت رأسها إلى كتف أمها وقلبها يخفق بتسارع واضح... لم تعهده من قبل...

نظرت إليها أمها باستغراب وخوف قائلة:

- ما بك يا دلال... يداك باردتان وترتعشان.
- لا شيء أمي...

لم يكن لعصر الخوف مكان بين أزمنتها ولا للانكسار فرصة للنفاذ بين مصطلحاتها لكن الأقدار وضعتها رهينة لهذا الإحساس الذي يعبث بجمال الروح ويهزّ مكامن الثقة بأرجائها.

... كانت تظن نفسها قوية... وحتى أقوى من صفعات القدر لكنها امرأة. والضعف فيها ليس دخيلاً أو ضيفاً عابراً... هو ميزة ولدت بها وكبرت معها واستقرت في شخصها كما يستقر القلب بين الضلوع.

لم يكن تمردها وغضبها الدائم دليلاً على شيء يطغى على أنوثتها ويعلوها حجماً... لقد كان كبرياؤها الزائد نتيجة دلالها المفرط ووجهاً ثانياً لها ترتديه كي تحارب أحزاب العاطفة الزائدة التي كانت لتقتلها لو لم ترمِ بها على الأوراق...

وبينما كانت تترجح بين أعمال والدها وصفقاته كرجل شجاع... كانت بداخلها أنثى تصيح وتقول أريد أن أنجب ولداً...

نادى السيد ناجي كمال مشيراً إليه بيده فأتى مسرعاً ليحمل الحقائب عنه....

لم يمر على الوقت سوى ساعة وكانت دلال ووالدها في المطار على بعد نصف ساعة من الخوف... من الرعب... ومن الانتظار... ركبت الطائرة للمرة الثانية وهي تقرأ بعض الآيات من القرآن فهدّأ ذلك من روعها...

لكن ما إن استوت الطائرة في السماء حتى شعرت بنبضات قلبها تتسارع كما لو أنها ستقفز من أعلى صدرها نحو هاوية المجهول... لاحظ ناجي خوفها... كان سيمتنع عن الكلام لكنه استرسل يقول:

- أذكر عندما كنت في مثل سنك... كنت أرتعب جداً وأنا على متن الطائرة.

ابتسمت دلال... كانت ستقول شيئاً لكنه قاطعها:

- وأذكر كذلك أنني استطعت أن أتغلب على خوفي بإرادتي وشجاعتي... لم أكن ضعيفاً قط حتى أنني قرأت رواية

على متن الطائرة... وأنا في السابعة عشرة من عمري.... لقد كانت للأديب المصري مصطفى لطفي المنفلوطي أظنّ كان اسمها...

قاطعته بنبرة صوت مرتبك:

- تحت ظلال الزيزفون... أو ماجدولين كما يسميها بعضهم.
- نعم... لقد كانت رواية جميلة...
- ولكن... أبي لماذا ترفض ميولاتي الأدبية إذا كنت في صغرك قارئاً وفياً للرواية...
- لم يكن من مصلحتي أن أترك إدارة أعمالي لأشخاص لا أعرفهم ولا أثق بهم لذلك فقد كانت دراستك للاقتصاد وسيلتي الوحيدة كي أضمن مستقبل ثروتي وأتحقق من استمرارية شركاتي نحو الأفضل والأحسن...

كانت فرصة سانحة لدلال كي تنسى خوفها وتقول ما يخنق صدرها طوال سنين... ويحرقها بلهيب لا ينتهي...

- لكنني ما زلت أحب الأدب العربي وقراءة الشعر وحتى...

قاطعها بتجهم وغضب شديدين:

- دعك من الحماقات يا دلال وكوني مثلي عملية وواقعية... الأدب هو كذبة يصدقها التافهون...

لم يعد لدلال صوت يسمع وأبواب الحزن بعاصمتها تقرع... احتبس الكلام بشفتيها... كان من الأحسن أن تصمت... أن لا تقول شيئاً... أن تدع للكلمات فرصة كي تنام فوق وسادة

النسيان والتجاهل... لأنه كان أذكى بكثير من أن يستعصي عليه فك شيفرات العبارات ويكتشف حقيقة مكنوناتها التي تعيش سنوات في سكون دون أن تقول شيئاً كان بالكلام أو بالعيون.

- ...كم جميل أحياناً أن نبقى لغزاً محيراً محصناً بالأسرار... نشبه سفينة تتقن الإبحار وتحترف العبور في عزلة شديدة عن نظرات الأشخاص وتطفّلهم دون حاجتها إلى حارس أو شرطي أو حتى إشارات المرور... سفينة بعيدة عن الأنظار... ثابتة... متمسكة ببوصلة الأقدار...
- لربما تكون الحياة رحلة طويلة ومتعبة من شاطئ الابتداء إلى بر الانتهاء متوجة باجتيازاتها لحواجز الصعاب والعقبات ومكللة بانتصاراتها ضد جيوش اليأس والمعاهدات السرية للألم.
- ... قد تكون قصة طويلة لا تنتهي إلا بانكسار أقلامنا... بتلاشي أحلامنا بين الليالي المؤرقة لشتاء بارد لا يمضي إلا بسقوط كل الأوراق من أشجارنا... لكننا على قدر كبير من القوة كي نكمل القصة دون أن تستقيل أحرفنا من الكلمات... دون أن تنتصر أحزاننا على الابتسامات... ودون أن يبكي القلم... من شدة الألم...

كانت دلال تزيح بعضاً من الدموع المتجمهرة أمام مقر مقلتيها عندما ابتسمت في وجهها المضيفة سائلة إياها إذا كانت ترغب في شرب الشاي أو القهوة.

- عفواً سيدتي... هل تشربين الشاي أو القهوة...
- شاي من فضلك.

سكبت لها فنجان الشاي وانصرفت مخلفة ابتسامتها الهزيلة تنسحب من معاركها ضد قهر دلال ومخاوفها... شربت منه قليلاً ثم وضعته... ثم عادت لتحمله وترتشف منه القليل أيضاً كما لو أنه أصبح قضية أو مسألة معقدة... لم تكن تشعر بالخوف فقط... وإنما كانت تحس بالوحدة والعزلة رغم ازدحام الطائرة بالمسافرين لأن كل من حولها كان يحادث مخاوفه وينتظر لحظة الهبوط على أحر من الجمر...

أخذت من حقيبتها قطعة لبان ووضعتها في فمها ظناً منها أن مضغ العلكة يساعد على خفض التوتر وينقص من استقطاب الأذن لصوت الطائرة الذي زاد دويها جراء تهاطل الأمطار وسرعة الرياح.

أعلن القائد وجوب وضع حزام الأمان لأن هنالك مطبات جوية فزاد رعبها الذي كان يفوق الأمطار تهاطلاً على قلبها... كانت المطبات قوية بحيث أدت إلى تساقط بعض الأشياء من أماكنها وقتاً قصيراً... استعادت بعدها الطائرة توازنها وخرجت منها بسلام... لكن قائد الطائرة لم يهدأ له بال... وقرر إلقاء نظرة خاطفة على ما حدث... وهو يجول بين الصفوف... لمح دلال بنظرة خاطفة أعادته إلى الوراء برهة من الزمن... انتبهت أنه ينظر إليها بتمعن فاستغربت... لكن شيئاً ما كان يجول بخاطرها يخاطبها قائلاً:

- ألم تري هذا الشخص من قبل؟...

مر على الوقت نصف ساعة كانت كفيلة بأن تتذكر أن من يقود الطائرة هو نفسه الرجل المعتوه الذي اصطدمت به في الرحلة الماضية... لقد كان تاريخه أسود... وها هي الآن تركب معه للمرة الثانية... لربما كان هو ولربما لم يكن... لكن رؤيته كانت كافية أن تتعب أكثر... وتصبح أكثر رعباً من ذي قبل... شحب وجهها وابيضت شفتاها وأحست بأن أنفاسها تتنازل عن مدها وجزرها الأبدي... كانت ستموت من سطوة الأفكار السوداء عليها والتي بدت لها أكثر سواداً ممّا ينبغي...

شعرت بدوار شديد وهي تسترجع كل الصور من ألبوم ذاكرتها مثلما استرجعت كل ما تساقط يومذاك عند اصطدامها به من حقيبتها... هل يعقل أن يكون هو نفسه لا أحد غيره أم أن الحياة تريد أن تلعب معها لعبة أخطر ممّا توقّعتها؟... أحياناً ونحن نهرب من الماضي نجد أنفسنا وجهاً لوجه معه... نسترجع أيامه بتفاصيلها المرة والحلوة ونذرف من أجله دموعاً كان من الأجدر بنا لو احتفظنا بها للحظات في المستقبل... لربما كانت ستكون أكثر ألماً وبؤساً... لم تكن دلال متيقنة إذا كان هو بالفعل قائد الرحلة المشؤومة التي عادت بعدها إلى الحياة بحقيبة صغيرة للموت كانت ستدخلها في عداد الوفيات لو لم تفرغ الأقدار ما بداخلها من ملابس سوداء... استغرقت وقتاً كثيراً في التفكير فيه... هو الذي اختار مهنة الموت لكي يعيش حراً طليقاً على متن

هيكل كبير من الحديد لا يتسع له وحده... وإنما لأشخاص آخرين يعشقون قرع أبواب السماء بإرادتهم ولا تعني لهم المسافة الواسعة بين السماء والأرض سوى التلاعب بخوفهم وإطلاقه بعدما كان يعيش تحت إقامة جبرية مشددة.

نعم... إنها الحياة بتعقيداتها تفرض علينا أحياناً إرضاء أحاسيس ومحاربة أخرى... إقالة مشاعر وتعيين أخرى... إحياء عواطف وقتل أخرى... هل يمكن للإنسان أن يعيش يوماً مبتور الوجدان؟

هل يمكن أن يتعلم من خوفه ألا يخاف؟... ومن حزنه ألّا يحزن...؟

هل يمكن أن يحدث انقلاباً على مملكة الذاكرة ويقيم جمهورية للنسيان...؟

أرادت دلال أن تكتب شيئاً لكن وجود والدها بقربها ضايقها... طوّق حريتها.... وبنى لكلماتها قصراً جميلاً... لا لتعيش فيه... ولكن لتنتحر من شرفاته... حطت الطائرة بباريس عاصمة فرنسا وعاصمة الموضة والعطور فكانت الفرصة سانحة لدلال كي ترتاد محال راقية ومشهورة لتتبضّع منها أجمل وأحلى الألبسة والأحذية والأهم من ذلك تفقد منزلها الجديد الذي ابتاعه لها والدها... كانت سعيدة جداً برؤيته لأنه كان أشبه بمتحف صغير بتفاصيله الجميلة والأنيقة... خلعت ثيابها واستلقت على سريرها ونامت نوماً عميقاً تاركة والدها يستريح بدوره.

كانت ترتدي ثوباً أبيض طويلاً... وشعرها الأحمر أصبح طويلاً بعدما كان قصيراً وجريئاً... دخلت أحد المحال لشراء قطعة بيتزا وعصير إذ بها تجده يلقي عليها قصيدة وسط حشد غفير... نعم لقد كان هو الطيار نفسه... لا غيره... يقول والدموع في عينيه:

- آسف لأنني... لربما ظلمتك سيدتي... لكنني سأحارب الدنيا كي تعيشي وأموت يا ليتني... أموت يا ليتني...

استيقظت دلال من هذا الحلم بنبضات قلب مرتجفة، منتحبة... تنظر إلى كامل أرجاء الغرفة علها تجده... لم يكن هو... لقد كان كابوساً مزعجاً... لكنها تذكرت آخر جملة في القصيدة «أموت... يا ليتني» فأحست بانقباض شديد في الصدر... وحزن قاتل ومباغت... فبكت دون أن تعلم السبب الحقيقي وراء بكائها... كانت أشبه بطفلة صغيرة تبكي لأنها تعثرت فسقطت أرضاً... وجُرحت قدماها... خرجت من الغرفة مسرعة وكأن أحداً يلاحقها... يتبعها كظلها... تفقدت كل الغرف وألقت نظرة خاطفة على الحديقة الصاخبة الجمال... لم يكن هناك... لكن شبحه كان يتعقبها.. يحجز لنفسه مكاناً بذاكرتها ويجعلها سجينة الرعب... وسجينة الحزن... لم يكن والدها هناك... لقد غادر تاركاً وراءه ورقة صغيرة مكتوب عليها أنه سيعود بعد ساعتين... جلست على الأريكة... أشعلت التلفاز... كانت كل القنوات باللغة الفرنسية... ومع أنها تحب اللغة الفرنسية إلا أنها تعشق اللغة العربية... وتؤمن كل الإيمان أن شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب... كانت

تقسم بالوطن وأحزاب حبه داخلها لا تنام... دائماً مستيقظة... متيقظة لأهداف مباغتة متربصة بمرماها الوطني... تذكرت أنها لم تتصل بأمها فقامت مسرعة... غيرت شريحة الهاتف النقال واتصلت بها على عجل... هاتفتها مراراً... وتكراراً لكنها لم ترد... عاودت الاتصال بكمال فرد بنبرة صوت متألمة متلعثمة...

- آ... أهلاً دلال... هل وصلتم بخير....؟
- نعم... أين أمي... اتصلت بها فلم تجب.
- لقد... إنها في الحمام... أقصد في.
- ماذا حدث يا كمال وأين باقي الخدم... لطالما كانت أمينة وسعاد تجيبان مكانها...

جرّب كمال أن يكذب... لكن محاولاته باءت بالفشل فحبال الكذب ليست فقط بالقصيرة... لكنها أحياناً تكون أقصر ممّا نتوقع...

- أنا معها... في المستشفى.
- ماذا؟
- لا تقلقي... نوبة صداع كعادتها... وهي الآن أحسن.
- أريد أن أكلمها فوراً.
- ولكن... حسناً... سأدخل غرفتها.

خرجت سلمى من المستشفى والهاتف بيدها ودلال بقلبها توشك على السقوط بآهاتها...

- هل أنت بخير يا أمي...؟

- نعم... أنا أفضل حالاً...لقد أعطوني حقنة مهدئة.
- كان من الأجدر بك أن تسافري معنا كي نُجري لكي فحوصات هنا.
- أنا لا أشكو شيئاً... فقط هي نوبة الصداع النصفي التي تعودتها، أرجوك دلال... أقفلي الخط وعاودي الاتصال بي لاحقاً... أنا متعبة جداً... وأريد أن أبقى وحدي بعضاً من الوقت... كانت سلمى تعاني مرض الصداع النصفي الحاد الذي يصل بها أحياناً إلى حد التقيؤ وعدم تحمل الأضواء... وكذلك الأصوات فكانت غالباً ما تدخل غرفة معتمة... وتغلق الباب لتستريح بها ساعتين أو أكثر بعد حصول النوبة... تعود بعدها إلى الحياة بأشلاء امرأة أُخرجت تواً من تحت الأنقاض بعد أن ضرب زلزال عنيف بمدائن عافيتها وأسقط آخر حجر تبقى في عمارة سعادتها.

لا يوجد حزب أقوى من حزب المرض في دولة الحياة... يستطيع أن يغير الأنظمة ويحدث انقلاباً مريعاً بهياكلها... له سلطة قاسية عليها... يخترق أصغر خلاياها ليصنع منها لعبته المفضلة ويقتلع مشاعرها من الجذور... هو حقاً أبشع نوع من أنواع الشعور...

لربما يتحداه الإنسان أحياناً وأحياناً أخرى ينهزم أمامه ويستسلم له بخضوع مفروض وغير مستحب لكننا منه فقط نتعلم

أن شفاءنا منه بعقولنا يسبق أجسادنا... وقلوبنا التي تصببت عرقاً وتعودت الأرق لولاه لما تعودت كيف تصمد طويلاً كي تعيش أطول... وتتحمل أكثر... تبعثرت دموع دلال حولها وكانت لتغرق فيها لولا أن والدها عاد بسرعة ليسألها عن سر بكائها... فكان ردها محتجباً وراء سكوتها... قررت ألا تقول شيئاً... ألا تحكي عن الإحساس أمام شخص لا يعرف عنه إلا القليل...

ابتسمت قائلة:

- «لقد عدت مسرعاً».
- نعم... ذهبت لزيارة صديق لي يسكن في الجوار... والده جزائري وأمه فرنسية... يقيم هنا منذ أكثر من ٢٠ سنة... تساءلت دلال كيف لرجل أن يعيش كل هذه المدة دون أن يحن إلى وطنه فاستطردت تقول:
- هل يزور أهله في الجزائر؟
- لا... لقد كان تواً يقول لي إنه لم يزرها منذ ما يقارب ٦ سنوات.
- يعيش وحده؟
- لا... هو متزوج بجزائرية وله ولدان.
- هل قال لك إنه يشعر أنه في وطنه... وأن الجزائر لا تزال في قلبه... هل كذب عليك كما استطاع أن يكذب على نفسه....؟
- أحاسيسه ووطنيته لا تهمانني... ما يهمني أن الورقة

الناقصة من العقد كانت بحوزته واسترجعتها... حسناً... جهزي نفسك كي نتعشى خارجاً... سأعرّفك إلى مطعم فاخر... شعرت دلال وكأن أحاسيسها تعيش بمنفى ومشاعرها تستقيل قبل أن تنهي مشوارها المهني كي تتقاعد قبل الأوان في وطن لم يعد يثق بأصحابه، وطن... لم يعد يشعر بالأمان.

ارتدت معطفها الذي يتلاءم وبرودة الطقس بفرنسا... صففت تسريحة شعرها... وضعت كحلها الصارخ... حملت حقيبة يدها الحمراء واتجهت هي ووالدها إلى المطعم... لكن ما إن وصلت... حتى أحسّت كأن خطواتها تسبقها وقلبها ينقبض بشدة وينتفض كعصفور صغير بكت السماء فبللت أجنحته بدموعها... جلست وبقيت تتأمل من حولها وتراقب لباقتهم المبتذلة وأساليبهم في المحادثة التي كانت تفتقد الكثير من البساطة والعفوية... فأيقنت أنه فعلاً من لا يستطيع أن يتحكم في أمواله ويحسن التصرف فيها... كانت هي سباقة لذلك واستطاعت أن تغير من شخصيته ومشيته وحتى نظرته إلى الحياة...

كانت عيون والدها تلمعان من شدة السعادة بهذا العشاء الذي كلفه ما يقارب ٣ ملايين دينار جزائري... هي نفسها أجرة عامل في القطاع العام لمدة شهر... إضافة إلى علبة الشكولاتة التي ابتاعها بعد خروجه من أحد المحال الباهظة التي لا يقل سعرها عن ٥٠ أورو أي ما يقارب ٥٠٠ دينار جزائري... كان البذخ

بالنسبة إليه مادة لا يتنازل عنها بسهولة... يمارسها أي رجل في مثل ثرائه... في مثل جفائه...

استيقظت دلال صباح اليوم التالي على صوت والدها الذي كان يستعجلها بالنهوض لأن موعد لقائه رجال الأعمال قد اقترب...

ارتدى بذلة رسمية رمادية اللون وتعطر حتى كاد يختنق... كما كاد معصمه يختنق من جمال ساعته السويسرية... كانت الأمطار يومذاك تتهاطل بشكل غريب... خرج مسرعاً وركب السيارة كي لا يتبلل وتبعته دلال تمشي بنظرات متثاقلة حباً وعشقاً في تلك الرائحة المنبعثة من العناق الأبدي بين التراب والشتاء...

تعمدت المشي على حافة الرصيف كما يمشي الصغار... لتتيقن ما إن كانت ستحافظ على توازنها كما يحافظ عليها المهرج في السيرك وهو يعتلي حبلاً طويلاً... شيئاً ما... شعور ما كان يجعلها سعيدة دون أن تتعرف إليه... أو تدركه... لم تكن لديها حاسة سادسة وحتى سابعة كي تقرأ المستقبل في جريدة لم يتم طبعها بعد... كل ما كان بحوزتها هو مقدمة قصيرة لكتاب طويل ومثير جعلها تبدو كطاووس فقد كل ريشه ليبدو حمامة وديعة...

كعادتها دلال... تخرج دائماً منتصرة في معاركها كسيدة أعمال لا تنهزم بسهولة... تواصل وتفاوض حتى النهاية... وتكمل مسارها بصمود وعزيمة وإرادة... أنهت مهمتها ولم يبقَ شيء سوى اقتناء بعض الملابس والعطور كي ترضي أُنوثتها الجائعة

بعض الأطعمة المخبوزة في فرن الثراء... هوسها بالموضة وشغفها بحقائب اليد جعلها تقتني العديد منها خصوصاً لـChanel وLouis Viton وحبها للعطور جعل حاسة الشم لديها تتوج بالميدالية الذهبية... وهي تلف وتدور في المحال شدت انتباهها ساعات جميلة معروضة على واجهة محل للساعات السويسرية فقالت في نفسها لمَ لا أنهي تبضعي بساعة جميلة لـRolex أو Festina وهي تنظر إلى إحداها بانبهار شديد شاردة الذهن إذا بيد تربت كتفها قائلة:

- أردت أن أشتري ساعة لكني أعجز عن الاختيار وسط هذا العدد الكبير من الساعات الفاخرة. فهلا ساعدتني آنستي من فضلك؟

لقد كان رجلاً أربعينياً يضع نظارة سوداء وقبعة.

- بالطبع سيدي... Avec plaisir.

أمست دلال تنقب عن ساعة رجالية ونسائية في آن واحد ودون عناء وجدت نفسها تشير إلى ساعة ثمينة وراقية تتلاءم والمظهر الحضاري لهذا السيد... فرح باختيارها وشكرها... دفع ثمنها وهم بالانصراف مخلّفاً وراءه نظارته وقبعته وامرأة تبحث عنه كي تعيدهما إليه.. لحقته بسرعة حتى أول الشارع وهي تلهث لشدة ركضها ما إن وصلت إليه حتى فوجئت وهو يستدير ليقول لها:

- ماذا آنستي...؟
- لقد نسيت...

- نظارتي وقبعتي... آه شكراً.
- كأنني رأيتك سابقاً.
- لا أعتقد.
- ألست بقائد طائرة.
- بلى...
- لقد كنت على متن الطائرة التي قدتها البارحة من الجزائر إلى باريس.
- حسناً... هل استمتعت بالرحلة...؟
- قليلاً... أنا أخاف ركوب الطائرة...

ضحك الطيار منها قائلاً: الطائرة مزودة بأحدث التقنيات فهي لا تسقط إلا نادراً... كذلك فإن الخوف منها هو نفسه الخوف من المجهول... لأن الإنسان بطبعه يهاب دائماً الأشياء التي لا يحسن معرفتها...

- لدي رحلة غداً.
- أنا رحلتي بعد الغد... سنلتقي في المطار.
- لماذا؟
- كي أعلمك قيادة الطائرة.

ضحكت دلال بدورها وهي تتساءل كيف لشخص يخاف ركوب الطائرة أن يستطيع قيادتها.

انصرف الطيار مخلفاً وراءه زوبعة من الأفكار تراود دلال

وتقتلعها من الجذور كشجرة فتية غادرت تربتها جراء إعصار غير مرتقب.

استقلت سيارة أجرة وعادت إلى المنزل بأحاسيس متعبة ومشاعر منقبضة وهي تفكر في قوله... سنلتقي في المطار..

وسط عواطفها المزدحمة وقفت في مفترق الطرق تصرخ وتستغيث من هذا التواطؤ الصامت للأقدار عليها... ودون أن تشعر وجدت نفسها رهينة لإحساس جديد دخل مدينتها دون أن يستأذنها واحتل عاصمتها بحب شديد... أيقنت حينذاك أنه احتلال من الصعب القضاء عليه وممارسة سياسات المفاوضة والمراوغة التي كانت تمارسها من قبل على الطاولات المستديرة لصفقات والدها... لن تجدي نفعاً معه... لأنها لم تكن محصنة بما يكفي من الذخيرة والأسلحة كي تقاومه وتعقد معه هدنة تنم عن السلام العاطفي... لقد كان شرساً منذ البداية... وحتى أكثر جرأة وشراسة من شعرها الأحمر...

باغتها بموعد مفاجئ وعبثي وهي التي لطالما تعودت مواعيد مبرمجة ومضبوطة... وحكى لها أسطورة الخوف في وقت وجيز لا يتعدى لحظات... كلماته كانت أخطر بكثير من طائرته التي كان يقودها وصوته كان أشبه بزلزال عنيف يضرب مواطن السمع لديها... لقد كان هو نفسه الرجل الذي اصطدمت به في المطار ببذلته السوداء المخططة بالأصفر لكنها لم تكن قط تعتقد أنه طيار... خانها الإحساس يومذاك.

عادت إلى المنزل بقلب آخر غير الذي كان بداخل صدرها من قبل... قلب يحاول أن يحارب نبضه... أن يتعرف إليه من جديد... وكرواية جديدة ندقق في تفاصيل مقدمتها علّنا نتعرف إلى بعض ملامح أبطالها... جلست دلال قرب النافذة تستمع إلى أغنية بدون عنوان... وبدون ألحان... كانت للمطر... الأغنية الوحيدة التي لا تستطيع أية آلة موسيقية أن تعزفها بإتقان.

كانت الساعة الثامنة عندما همت بالخروج ووالدها من أجل عشاء فاخر آخر تودع به فرنسا وتعود إلى حبيبتها الجزائر كي تعانقها من جديد وتخبرها أن قلبها قد مات... قد وقع في معركة الحب شهيداً...

وهي في المطار تركت والدها يسحب نفساً عميقاً من سيجارته وهو يطالع الجريدة متربصاً بأحدث الأخبار وانزوت مع نفسها تتأمل وجوه المسافرين الواقفين منهم والجالسين... القريبين منهم والبعيدين كل من كان هناك كان يشبهه... بعضهم كانت لديهم عيونه... وبعضهم كانت لديهم ابتسامته وآخرون يضعون نظارته وقبعته إلا هو الغائب الحاضر بين طيات روحها... كان يرافقها كظلها... هذا الذي استطاع أن يكتب على صفحات أيامها أشياءً لم تفكر قط في كتابتها من ذي قبل ويقحم طائرته في سمائها لا لكي يسافر هو... ولكن لتسافر هي بين نظراته القاتلة علها تجد بعيونه لنفسها مرفأً لأحزانها ومكاناً آمناً تلجأ إليه... مر من الوقت

ساعتان كانتا بمثابة سنتين بالنسبة إليها... لم تكن تعرف قبلها أن الوقت كما الماء يتمدد ويتقلص ويعيش بذاكرتها أطول مما يعيش بين عقارب ساعته... هو أحياناً عدو... وأحياناً صديق... ولا يمكننا نحن البشر أن نكتشف مدى خطورته وعدائيته إلا إذا استسلمنا لمحطات الانتظار بعواصمه... كيف لا والانتظار في العمر عمر آخر. حان وقت المغادرة... حملت الحقائب مع والدها وعيونها لا زالت تراقب من حولها علها تراه... لكنه كان كاذباً... ضرب لها موعداً وهمياً كي يجعلها تضحك من نفسها ساعتين كاملتين... ركبت الطائرة والحسرة تحاصرها وتكبل حنينها إليه بقيود الغضب...

هبطت الطائرة في مطار هواري بومدين بسلام... كانت دلال وقتذاك تهيئ نفسها للنزول... وتعوّد ذاكرتها نسيانه... انتشاله كغريق لا يعرف السباحة... سقط صدفة في بحر مشاعرها العميق...

تكلم الطيار مع المسافرين قائلاً:

- «أتمنى أن تكونوا قد استمتعتم بالرحلة... وأن تكون الساعة التي قضيتموها أجمل من ساعتي السويسرية التي اشتريتها البارحة».
- ابتسم الجميع وضحك بعضهم ومنهم من همس قائلاً:
- «يا له من طيار مجنون».

إلا دلال التي كانت تلملم نفسها قطعة قطعة وتتحقق أن

كل قطعة منها عادت إلى مكانها وخصوصاً قلبها الذي أضحى بالنسبة إليها كبناية ضخمة يصعب حملها أو حتى تحريكها وتغيير مكانها... اختلط عليها الحلم بالحقيقة... فظنت نفسها تهذي... سألت والدها كي تتيقن:

- ألم تسمع يا أبي ما قاله الطيار.
- نعم... إنه يخبرنا عن ساعته السويسرية الجميلة.
- لكنك... لم تتعجب ولم تضحك يا أبي.
- لا يهمني ماذا يقول... ما يهم أنني عدت إلى الجزائر بصفقة رابحة وسأبدأ غداً بدراسة الملفات الجديدة... ابتسمت دلال لهذا الرجل نصف ابتسامة وقتذاك... تمنت لو استطاعت أن تصرخ في وجهه علها تحيي بعض ما مات من مشاعره فوق أرض صفقاته التي لا تنتهي... لقد كانت أعماله ونجاحاته طريقاً يؤدي حتماً إلى انحناءاته العاطفية... هل كان ليكون رجلاً غير ذلك لو كان فقيراً...؟ وهل كانت أحاسيسه لتصمد أكثر في حروبها مع جفائه وكبريائه؟...

كان الوقت سانحاً كي يلتقيها من جديد منتهزاً فرصة وجودها وحدها بعدما اتجه والدها لاسترجاع الحقائب... صُدمت لرؤيته يقول لها:

- هل استمتعت بالرحلة؟
- لا... لقد كنت قائداً سيئاً.

- لماذا؟
- لأن الاهتزازات كانت عنيفة جداً اليوم.
- ولكن ذلك ليس ذنبي... ذلك هو وقع المطبات الجوية على الطائرة الناتج من سوء الطقس والتهاطل المستمر للأمطار.
- كان من الأفضل تأجيل الرحلة.
- لكنني انتظرتها بصبر طويل... وبحزن أطول...
- لماذا؟
- لأنني أعرف أننا سنفترق مثلما التقينا.

نظرت دلال إليه نظرة غريبة وبائسة وحتى أكثر بؤساً من بؤساء فيكتور هيغو.. تشتتت أفكارها ولم يعد بداخلها أدنى شعور تجاهه... رجل فراقه يسبق لقاءاته وحزنه يسرق منه ابتساماته... كيف ستلجأ إليه وهو الذي نفته الأرض كي تحتضنه السماء ويعترف بالمغادرة في أول بيت من قصيدة البقاء...

اضمحلت أحاسيسها وتلاشت وباتت تعيش بمنفى... بمنأى عن أحلامها المتمردة... بكت دلال وهي التي لم تتعود إلا الضحك والقهقهات العالية... تألمت لأنه غادر مخلفاً وراءه نظراته تسرق منها أفراحها دون اعتذار ودون سابق إنذار... كليل يباغتها بظلمته الحالكة في وضح النهار...

لقد كان ذلك بالنسبة إليها أشبه بالدمار... لم يعد لفمها كلام تقوله بين أنفاس حزنه المتقطعة... ومطبات شجنه المفزعة...

لقد كان بعيداً منذ البداية... شبيهاً بالنهاية وعيونه التي ابتسمت أجهضت بصرها يوم اعتقدت أنها من الممكن أن تقتل كل جيوشها من أجل الملك... وتغدو من أحسن لاعبي الشطرنج... لكن الملك كان أجبن مما توقعته وغادر ساحته المخططة بالأبيض والأسود كي ينهي الحرب قبل بدايتها ويوفر على جنوده عناء الدفاع عليه... كم كان أنانياً وهو يقطف كل أزهار حديقتها لينثرها على قبره... ولكن قبل موته... صمتت دلال طويلاً... لم تكن تدري كيف استطاعت أن ترتدي صمتها وبخزانتها الكثير من الكلام كي تلبسه وتتفنن في تنميقه وتنسيقه... هل كانت لتكون أقوى وهي صامتة... أم أن كلماتها غدت عدوة لشفاهها وخروجها لم يعد يتناسب والجو الماطر بسمائها... أيقنت بعدها أن لعبة الصمت والخوض في غمارها هو ذاك النجاح الموقت لكلماتها التائهة...

غادرت المطار تاركة سحابة الحزن تمطر خلفها لتفوح من الأرض رائحة التراب ممزوجة بقطرات العذاب... هاته الفتاة التي عاشت حياتها بين عواطفها المنكسرة... كأي امرأة تخلت تواً عن ثوبها الأسود لترتدي سعادتها التي لا تتلاءم وبرودة السنين بقدر ما تعترف بقلب ينبض بالحنين مرّت أيام على فراقه على نسيانه... كأنه كان زكاماً عابراً بشتائها... كأنه كان طيراً تائهاً بسمائها وكانت هي تلك السحابة التي أتعبته ببياضها فراح يدخن في وجهها سيجارة أحزانه...

... في يوم اعتقدت أنه كان سعيداً... وأوشكت في لحظات مراهقة تتعرف لأول مرة إلى ملامح رجل رصدته بمنظار مخيلتها البريئة يمارس هواية الرحيل بإحساس عليل لا يرضى بغير الفراق كحل بديل...

عادت إلى منزلها بخطوات مشتتة أقل وُثوقاً مما كانت عليه وعزيمتها التي كانت تسبقها أضحت هزيمة تمشي خلفها كما لو كانت حارسها الشخصي الذي عاشت طوال حياتها ترفض وجوده ولا تستأمنه على نفسها... نامت مدة تتجاوز سبع ساعات يوم وصولها على أمل أن تستيقظ بدون نظراته... بدون كلماته... وحتى ابتسامته التي كانت تخنقها بصغرها المتعمّد... وهي على طاولة الصباح ترتشف أول جرعة من فنجان قهوتها المرة... سألتها أمها إذا ما كانت القهوة على متن الطائرة قد أعجبتها أم لا... وراحت بصفاء نيتها تحكي عن حبها لشرب الشاي والقهوة على متنها بمنطلق التغيير... كانت سلمى تبتسم ودلال تنظر إليها قائلة في نفسها:

- أُسكتي يا أمي أرجوك... لا أريد أن أتذكر أي شيء عن الطائرة والطيران وخصوصاً الطيار الذي كان يقودها... كان ناجي جالساً يتصفح الجريدة دون قراءة مفصلة لمحتواها إلا أنه قاطع زوجته بما كان ينقص لإغضاب دلال أكثر:
- هل تعلمين أن الطيار من الممكن أن يحكي للمسافرين عن مشترياته؟

- هل تمزح؟...
- لا... أبداً... اسألي دلال...

قامت دلال منتفضة من مكانها حتى أنها صدمت الخادمة وهي تخرج من الغرفة... فسقط كل ما في الصينية من حلويات صرخت في وجهها قائلة:

- لا أدري ما فائدة الخدم في هذا المنزل... غير إحداث ازدحام في التنقل بين أرجائه... اغربي عن وجهي...

استرسل ناجي يقول:

- ما الذي دهاك يا دلال؟... لماذا أنت غاضبة؟...

لم تجبه صعدت تجري إلى غرفتها ودموع ترتسم على خدها منهمرة... منحدرة... هي في أمس الحاجة إلى منديل يجففها ويقذف بها بعيداً عن تقاسيم وجهها. لم تكن من قبل تعرفه... كانت تبحث عنه وعندما وجدته أضاعته... لم يكن لعبة... لقد كان رجلاً أتقن اللعبة لا لأنه يحترف المراوغة ويتمتع بذكاء خارق ولكن لأنه الرجل الوحيد الذي يشهر انسحابه منها قبل بدايتها ويغير قوانينها باستثناء نادر في المعاملات، صعدت أمها وراءها تراضيها تريد أن تعرف ما بها... أو ما الذي أصبح فجأة يعتريها... فتحت الغرفة فوجدتها جالسة على مكتبها واضعة يديها على خديها المبللين بأمطار عينيها... سألتها عن سبب مغادرة الغرفة منزعجة فلم تجب... ولم تنظر إليها البتة، ما زاد من حيرة سلمى

ويقينها بأن هناك شيئاً هو بالفعل مثير ومهم... صمتت هنيهة ثم قالت لها:

- حسناً... سأتركك ترتاحين... لابد أن شيئاً ما عكر صفوك في هاته السفرة... أنا أمك وأحس بك يا دلال... إذا أردت أن تقولي لي شيئاً فأنا دائماً هنا بقربك... اتجهت نحو الباب بخطوات متثاقلة وما كادت تصل الباب حتى سمعت دلال تكلمها بصوت منخفض تتخلله عبرات متقطعة:
- لا تقلقي أمي... أنا متعبة فقط... وأظن كذلك أنني مصابة بزكام فالجو بفرنسا بارد جداً.
- حسناً... سأنزل وأطلب من الخادمة أن تحضر لك شراب بابونج ويانسون... سيريحك قليلاً... لم تكن تود معرفة كل التفاصيل أو التنقيب عن أسرار ابنتها كما تفعل عادة الأمهات مع بناتهن لكنها استسلمت لبعض الفضول بدافع الحب... وبضغط من مشاعر الأمومة التي تفوقها سلطة وسطوة على الروح.

ابتسمت قائلة:

- هل ثمة شيء ضايقك خلال سفرتك؟
- لا أبداً... في حقيقة الأمر... أنا أخاف ركوب الطائرة لذلك شعرت بقشعريرة تتسرب إلى جسدي وتعبث بذهني عندما ذكرتما أنت ووالدي... لم تقل دلال كل الحقيقة بل

اعترفت بجزء صغير منها... وتركت ما تبقى من خرابها لنفسها كي تعيش بين شوارعه تائهة تبحث عن إجابة واضحة لعدة أسئلة مبهمة كانت تجول برأسها متمردة على أعصابها...

مسحت دمعها بمنديل يرتجف من الأسى... لم يكن لها بل لامرأة أقوى منها بكثير اسمها الحياة...

فتحت خزانتها بقلب هارب... كي ترتب أغراضها الجديدة بداخلها وتستحضر مع كل قطعة تضعها المتجر والشارع الذي ابتاعته منها إلى أن وصلت إلى الساعة وهي تحملها بين يديها ابتسمت... تذكرته وهو يشكرها على انتقائها ساعته ويثني على ذوقها الرفيع... تخيلته وهو يخترق كل العادات والأعراف ليقول للركاب إنه اشترى ساعة جميلة... لكن كل مظاهر الجمال تلك تبددت وانصهرت بانسحابه التاريخي الذي كان يدوي بمخيلتها كقنبلة يدوية الصنع انفجرت صدفة بكوكب إحساسها الضخم كي تبعده عن مداره وتغير موقعه في المجرة... لم تكد تكمل ترتيب الخزانة حتى عادت أمها وهي تحمل بين يديها شراباً ساخناً... كان أشبه بفوهة بركان ثائر.

ابتسمت دلال قائلة:

- شكراً أمي... أنت امرأة حنونة وطيبة جداً.
- لكن طيبتي لم تؤهلني كي أكتشف ما يختلج في صدرك ويضايقك عزيزتي.

- إذن فأنت لم تصدقيني يا أمي... لقد قلت لك إني أخاف من الطائرة وإني....

قاطعتها سلمى قائلة:

- الألسنة الكاذبة تفضحها العيون الباكية الصادقة التي تزداد بريقاً كلما ازداد كذبنا والحب وحده كفيل كي يجعلنا نكتشف خيانة أو مصداقية من حولنا...
- ولكنني لا أكذب يا أمي...
- أرجوك دلال لا تقاطعيني... أنا لا أحدثك عن آخر صيحات الموضة أو عن التفاصيل المهمة لأحداث العالم... أكلمك عن أحاسيسنا التي ننفيها من موطنها الأصلي... نبعدها عن قلوبنا ظناً منّا أن القلوب خلقت فقط كي نعيش نحن لا لكي تعيش هي وتكبر بقوة مشاعرنا واختلاف درجاتها وحتى ضعفها ومعاناتها...
- لم أكن أعرف أنك مرهفة الإحساس يا أمي...

كانت سلمى تتكلم ودلال تضع كلماتها بالميزان الواحدة تلو الأخرى ثم تقيسها بالمسطرة... كي تعرف كم وزن كل حرف وكم طوله وهل طوله الحقيقي هو على الشفاه أم على الأوراق...!!

تعثرت بجملها القوية وتأثرت بها واستطاعت أن تفهم منها أن كلماتنا تولد من رحم الإحساس وتكبر بقوته وبقدرته على النضج في صدورنا وفي أفئدتنا... نعم... تعلمت دلال من الحياة الكثير... تعلمت أن تقرأ بين السطر والسطر وبين الرقم والرقم...

وبين الحرف والحرف وبين نظرتين متتاليتين لا يفصل بينهما سوى رمشة عين.... تعلمت كيف تنادي اسمها بنفسها وتقول نعم كمجنون نادر... وتستعير من الشمس ابتسامتها الصباحية كي تكون سعيدة... وعندما يغمرها السحاب بأمطاره ويتعقبها الخريف بإعصاره تكون شجرة صامدة لا تعترف بقوانين الانحناء...

تعلمت كيف تسد أبواب الغدر في منازل من تحبهم وتترك لهم متعة إيذائها بخيانتهم وتسمح لقلبها بالعفو والغفران لهم... لا حباً بهم ولكن رحمة ورفقاً بقلبها الهش الضعيف... والأهم هو أنها تعودت الوقوف على ميزان الحياة ساعات طويلة كي تكون خطواتها بطرقها أكثر وُثوقاً ومواجهتها لأعدائها أكثر سهولة فمن يعرف قدر نفسه لابد أن يدرك أن أكثر الأشخاص إساءة إليه هو أقلهم وزناً...

بقلب مترهل... متأسف وثائر على شرايينه وبطيناته وحتى لون دمه الأحمر... عادت إلى الحياة... تبتغي منها قلباً جديداً بريئاً من معارك الحب وخسائره، من معاقل الحزن ومجازره وكل أملها أن تكون إخفاقاتها هي فاصلة من فواصل أحداثها العديدة... لا نقطة توقف تنتهي عندها.

عدلت شعرها الأحمر الجريء ووضعت قليلاً من أحمر الشفاه الذي لا تظهر أبداً من دونه لكأنه أهم بند في معاهدة الأنوثة التي تعقدها كل امرأة مع مرآتها... انتعلت حذاءها الرمادي اللون

ذا الكعب العالي... الصارخ والذي يشبه إلى حد كبير شموخ إرادتها وكبريائها...

صفنت قليلاً وهي تنظر إلى المرآة بنظرات يتخللها التوجس والشك أن هناك شيئاً لا يتلاءم وشخصها... لا يشبه عنادها ومكابرتها... نعم لقد كان حذاؤها الرمادي الباهت... الضائع في غابات الحياد بأسراره الضبابية التي لا تنقشع... انتعلته صدفة دون أدنى تفكير... لربما كانت تبحث عن التغيير... أو أن كثرة المقتنيات بخزانتها أحدثت انقلاباً بذوقها الدافئ والجريء... نزعته لأنها طالما آمنت أن الرمادي هو ذلك المزيج المتلاعب بين بساطة الأبيض وبرجوازية الأسود... بين الخير والشر... بين الظلم والعدل... بين الإيمان والكفر... بين كل حدين كان يختار الوسط ليبدو بريئاً... وصادقاً...

لكنه كان بالنسبة إليها كاذباً ومنافقاً متموقعاً في خريطة لا تليق به... بل بألوان أكثر شفافية ومصداقية منه... ذكَّرها به... بابتسامته الحزينة... بحضوره الغائب... ببقائه الراحل... بساعته الثائرة على الوقت... نزعته ورمت به بعيداً... نادت الخادمة وقدمته إليها مسرعة....

- خذي هذا الحذاء.

فرحت به... لقد كان جميلاً... فرنسياً أصيلاً لكن عيبه أنه يؤمن بمبدأ المنتصفات ويشجعها بتقدير خاطئ وانجراف عبثي

أفرزته غدد الجهل الاجتماعي كهرمون معارض للأنظمة العادلة... شكرتها وانصرفت مخلفة وراءها دلال تطفئ حريقاً بعواطفها يأبى أن ينتهي أو حتى يزول...

انتعلت حذاءً جلدياً أسود كأحزانه... كفراقه... كأملها الوهمي ببقائه... ركبت سيارتها واتجهت نحو الشركة... دخلت مكتبها فوجدت ما يقارب عشرة ملفات على المكتب... نادت سكرتيرتها علياء...

- ما كل هذا علياء.
- صفقات للتوقيع وعقود للدراسة.
- لم أكن أعرف أن غيابي خمسة أيام سينتج منه كل هذه التراكمات.
- حسناً... أحضري لي فنجان قهوة.
- حاضر سيدتي.

وهي تدرس الملفات واحداً تلو الآخر إذ بورقة قد وجدت بالخطأ بينها... كانت هناك تنام صدفة بين البقية لكنها كانت أشدها وأخطرها على أحاسيس دلال وحتى على سمعتها... أكملت قراءتها والحيرة تلتهم عقلاً التهاماً خانقاً مستغربة كيف لوالدها أن يخفي عنها شيئاً بهاته الخطورة... تركت كل شيء وسارعت إلى مكتبه تريد معرفة الحقيقة... دلفته مسرعة كأنما هناك شخص ما يتبعها أو يتعقبها... لاحظ امتقاع وجهها وشحوبه فسألها:

- هل ثمة خطب ما؟... هل من مشكلة؟
- أجابته بصوت متعثر.
- لا أبداً... أريد شرحاً مفصلاً عن هذه الورقة أعطته إياها بيدين ترتجفان من الخوف ومن الحيرة.
- إجراء روتيني.
- كيف... لم أفهم.
- لقد مات صديقي سامي دون علة أو مرض يذكر... هذا ما جعل الشرطة تشك بأنه قتل.
- ولكن لماذا استدعيت للاستجواب... واتُهمت بقتله...؟
- لا أبدا... لقد ذهبت إلى المركز وسُئلت عن علاقتي به... أعمالي معه... والمكان الذي كنت أوجد فيه وقت وفاته...
- ولكن... لماذا لم تخبرني بهذا يا أبي...؟
- لقد حاولت ما بوسعي إخفاء الموضوع ومنع تسربه... أنتِ تعلمين دور الصحافة الصفراء في تشويه أرباب الأعمال والقضاء على بريقهم بتلطيخ سمعتهم... كنت سأتحول من متهم بريء إلى قاتل حقيقي لو لم أفعل ذلك...

غادرت دلال مكتبه وهي تدخن شكوكها بسيجارة حقيقة كانت هي الأخرى تعيش بالمنتصف وتغرق في بحر رمادي اللون أكثر من حذائها الذي ودعته لتحتضنه أرجل فتاة تصغرها بخمسة

عشر عاماً لا تدرك عن الحياة وعن المنتصفات شيئاً... تسمرت في مكتبها مرة أخرى لكنها لم تستطع توقيع أو قراءة أي شيء لأن شتاء مباغتة أمطرت على أرضية أسطرها... فتبعثرت أحرف كلماتها... ولم يبقَ منها سوى أشلاء لجمل كانت من قبل تشكل شيئاً اسمه الكلام... حملت فنجان قهوتها وأخذت تتجرعها ببطء... وبقهر شديد... كانت عيونها تكاد تغرق في سوادها لشدة تأثرها وصخب الأفكار الشائنة التي استحالت إلى محقق مبتدئ كل همه هو أن يقطع الشك باليقين... دون جدوى... ودون أن يكون لهذا الاتهام مبرر أو تفسير واضح يلغي احتمال تورط والدها في قتل صديق عمره سامي... والدها صاحب الشركات الضخمة ورجل الأعمال الناجح الذي لا يرضى في مسلسل صفقاته إلا بدور البطولة.

شربت آخر جرعة بالفنجان كعقوبة مالية فُرضت عليها لأنها تجاوزت السرعة المسموحة لارتشافها... لاجترارها... لقبولها... وتنازلها... وحتى تأقلمها مع كل ما يقال... وكل ما يفعله والدها... وكل ما يلقيه من قرارات صارمة وحازمة لا تقبل النقاش... قرارات تعسفيّة... دكتاتورية تحت غطاء نظام ديموقراطي أصيل... ووديع...

كم أنت متعبة أيتها الحياة... وبين ورودك الجميلة شوك آثم... لا يرضى بغير النذالة ديناً موازياً لديانته ولا يعترف إلا بنجاحاته الموقتة التي لربما يعتبرها إحساساً أو شعوراً ثميناً يؤرخ نفوذه وسلطته على منافسيه...

نال التعب والإرهاق الفكري من دلال منالاً جسيماً وتورمت عواطفها فاحتج قلبها بإضراب عن النبض ساعات... كانت خلالها تمارس الحياة بدون حياة... استسلمت ليأس طويل... ومرير... كان بوجدانها يعيش أسير... ويطلق صفارة إنذار في شوارعها كي تختبئ من قنابل الحقيقة التي قذفت بها لكنها لم تمت... كانت امرأة شجاعة. صامدة... ومناضلة... فهي لا تستسلم بسهولة في معاركها ضد قتلة الإحساس.

استنشقت هواءً كان يبدو لها عليلاً... نقياً... ملائماً لرئتيها... لكنها أخطأت الظن به... لقد كان ملوثاً أكثر مما ينبغي وظلامه لم يكن من السهولة قط أن ينجلي...

كقصة جميلة ترويها الأم على أبنائها ليلاً كي يناموا... استقبلت دلال قصة والدها صباحاً بآذان صاغية لكي لا تنام ولا تعرف الطمأنينة إلى أحلامها مسلكاً... لربما هي الأقدار الغاضبة نستفزها بضحكاتنا، بابتساماتنا ونجاحاتنا... فتحاول أن ترمي شباكها كي تصطاد حياتنا بصنارة جميلة تحمل أسفلها طعماً لذيذاً لا يليق إلا لُمجة لطفل دخل تواً إلى المدرسة وراح يجري... يريد أن يكتشف أقسامها دفعة واحدة... ليصطدم أثناء جريه ببطن منتفخ لمدير كان سيكون أجمل لو لم تلوثه المصالح وتشوهه المطامع في بناء ثروته على حساب تعاسة الأبرياء... كان هناك بين شكها ويقينها خيط رفيع يدفعها إلى التخمين والتفكير حتى ساعات متأخرة من ليل تجاوز بطوله طول نفسها وسرعة

دمعتها... لم تكن تدري وهي تفكر في طيارها المتميز كيف جعلها توقع صفقة أحزانها بيدها وتعيد ترتيب أمنياتها في خزانة صمته التي لا تتسع لها ولا تلائمها... وكيف أنها تأقلمت مع وضع عاطفي يسيء إلى سمعتها كسيدة أعمال ناجحة ومشهورة وهي التي لطالما آمنت أن أكبر تنازل تقدمه في حياتك هو أن تتأقلم كما قالها محمود درويش، بفضله هو فقط أدركت أن الحياة ليست بعملية حسابية سهلة يمكن حلها في لحظات أو حتى معقدة يمكن التوصل إلى نتائجها بعد مرور عشر ساعات... الحياة هي ذاك المرور الإجباري بين السهل والصعوبات... بين الشوارع والطرقات... بين الحقيقة والشبهات... هي تلك الأرجوحة المشدودة بحبل الروح وحبل الجسد وما لنا ونحن نترجح بين حبالها سوى أن ندرك أن موت الروح يمزق أوتار القلب ويخترق أصغر خلاياه مشكلاً بذلك كفناً مباغتاً يليق بجنازة الجسد... وجدته صدفة يحتسي عصيراً مع امرأة تشبهه في جفائه... في خداعه... في سمائه البريئة من طائرة أحزانه وهي كانت على موعد مع نادية التي تعشق النوادي والمقاهي والحفلات... وكل شيء تضيع به الدنيا... عادات مميتة للوقت تأسر النجاحات بسهولة وتكسر العادات والتقاليد التي تقيد مجتمعنا وتترأس اجتماعاته.

رأته كأنه كان هو... أو أنه لم يكن... وجه إليها نظرات أكثر من عادية هي نفسها التي كانت تختفي وراء نظارته السوداء

بفرنسا... حتى ابتسامته التي كان يبعثرها على أرجاء المكان هنا وهناك كباقة ورد بيضاء تصلح لمزهرية سوداء... كانت بدورها باهتة متهرئة... منطفئة... كشعلة نار لم يبقَ منها سوى الرماد...

آه... من ابتسامة مباغتة كالحياة... وحزينة كالحداد... كم كانت ضعيفة وهي ترى جليد قوتها ينصهر أمام لفحة عابرة من شمس عيون الهاربة...

جلست بمقعد بعيد عن مكان جلوسه... طلبت قهوة وانتظرت نادية التي تأتي متأخرة عن مواعيدها بنصف ساعة كما العادة... ثم تبدأ باتهامها أنها امرأة متكبرة... ودقيقة جداً... وعملية... ومنضبطة... وجدية... و... و...و... فهي تمارس معها سياسة أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم... دخلت بشعرها المنكوث وحقيبة يدها الجلدية الصفراء اللون تترجح بين أصابع يدها... وحتى قبل أن تجلس صرخت دلال في وجهها:

- هاته آخر مرة أقبل دعوتك للفطور خارجاً... تكفيني عشاءات وغداءات العمل المفروضة علي فرضاً...
- ألا تصمتين وتدعينني أسترجع أنفاسي المسروقة مني...
- طبعاً... أصبحت أشبه بعجوز في الستين وأنت في الخامسة والعشرين لبدانتك... أنت بحاجة إلى حمية قاسية يا نادية... وريجيم تتبعينه، قاطعتها قائلة:
- بهذا المطعم سوف تتناولين مأكولات لم تتناوليها من قبل...

- أنا أحدثك عن الريجيم وأنت لا تفكرين سوى في الأكل، إنه خطأ عمي سمير الذي يترك كل ثروته بين يديك وكأنك الطفلة الوحيدة لديه... ابتسمت نادية قائلة:
- ... آه منك يا دلال... تريدين إفساد متعتي بالأكل... أنت مجنونة... مجنونة جداً...
- كانت دلال تحمل قائمة المأكولات بين يديها عندما سمعت أحدهم خلفها يقول:
- مجنونة بقدر ما هي جميلة...

التفتت... وجدته هو... ويداه تلتفان حول رقبة الآنسة التي بجانبه... أحست أنها تحلم أو أنها تصارع مرضاً نفسياً عويصاً يصعب تشخيصه.

كم كان لون الربيع جميلاً في عينيه... وكم كانت هي خريفية الطبع وهي تنظر باستغراب وحيرة إليه... انعقد لسانها عن الكلام... ولم يعد بوسعها أن تقول شيئاً... أحست للحظات أنه قال كل قاموس اللغة العربية في جملة واحدة يتيمة... تعرّق جبينها وأصابها حزن طفيف تسرب إلى وجدانها... إلى أعماقها... تساءلت عن تلك التي بجانبه... وكما لو كان مبصراً يقرأ الفنجان أو عالماً في التنجيم أجابها دون أن توجه له سؤالاً:

- أعرّفك بأختي الصغيرة نهى...

وقفت سيدة الأعمال دلال من مقعدها تاركة تلك الآنسة الضعيفة والعاطفية قابعة في كرسيها... نظرت إليه نظرة حادة قائلة:

- وهل أعرفك أنت حتى أعرفها هي...؟

أحرجته بكلامها الذي كان وجيهاً... فهي بالفعل لا تعرف عنه سوى أنه طيار سيئ لا يحسن تجاوز المطبات الجوية بسهولة وأنه متبضع أسوأ لا يجيد ابتياع ساعة يد وحده... والأدهى من كل ذلك أنه يؤمن برحيل يسبق اللقاء...

صمت مقطباً حاجبيه... كان سيقول كلاماً لكنها قاطعته بنبرة شديدة:

- على كل حال تشرفت بمعرفتكما... تستطيعان الانصراف...

ظنت أنه سيرتبك لمعاملتها القاسية معه لكنه كان هادئاً جداً وأكثر رزانة مما توقعته... غادر المطعم مخلفاً وراءه كعادته نظراته... ابتساماته... وامرأة جميلة ومثقفة وثرية... لكنها متمردة... تعمل جاهدة على نفي أحاسيسها من قلب كل رصيده حفنة من المشاعر كي يعيش ويستمر... جلست من جديد وهي تحدق بعيون غاضبة إلى نادية التي لم تفهم شيئاً سوى أنها تجلس وجهاً لوجه مع امرأة شرسة تقربها... هي ابنة عمها...

سألتها بسرعة شديدة بعد انصرافه قائلة:

- من كان ذاك الرجل يا دلال... هل تعرفينه... ولماذا عاملته بذاك الجفاء؟

- رجل يشبه كل الرجال.

- حسناً... ماذا كذلك...

- كلي واسكتي... فإن كنت لا تحبين الحمية فأنا أكره كثرة الأسئلة.
- لا... سأتكلم اليوم... حتى أنهي كل الكلام... وأعرف الحقيقة، نحن في المطعم يا دلال ولسنا في الشركة... لقد تعاملت معه بأسلوب حقير وبذيء لا يليق بامرأة في مكانك الشامخ... حسناً سأصمت وسألتهم هاته القطعة الجميلة من السلمون التهاماً.

أرادت دلال فعل المستحيل كي تداري مشاعرها وتخبئها بين طيات كلماتها الغاضبة... وتصرفاتها المتغطرسة... لكنها وجدت نفسها وجهاً لوجه مع دموع لا تتقن لعبة الاختفاء...

دموع كانت أقوى منها سلطة ونفوذاً... استسلمت للبكاء وسط الجميع في مكان عام وهي التي لا تذرفها حتى وهي وحيدة... كيف انحنت... وكيف انكسرت... وهل كانت عاطفتها المدفونة بأحشاء ذاكرتها حية ترزق...؟ لماذا انهارت برؤيته مع امرأة... ولماذا عاملته بقسوة ثم بكت كطفل صغير...؟ كيف استطاعت أن تمثل عدة أدوار لشخصية واحدة...؟

لماذا أرادت دلال أن تقمع عواطف تجتاحها وتتوج أنوثتها أكثر... أم أن انسياقها وراء أوامر والدها جعلها تعيش رهينة بعالم مبدأه المصلحة وميثاقه الثروة وصوته لا صوت له... مبتور الأحبال... بعد انتهائها من الغداء مع نادية والذي كان بالفعل شهياً وراقياً... تبادلت وإياها تفاصيل رحلتها إلى فرنسا.

بحديث كان يخلو من أبرز التفاصيل... أو الأحداث التي ابتدأت قبل أن تنتهي... مشاعر توفيت قبل أن تولد... انحنت قبل أن تقف... كلماتها كانت كلها في المنتصف... أبت دلال أن تسردها على نادية... لا بخطوطها العريضة ولا حتى الضيقة... عادت إلى المنزل متعطشة... متلهفة على غير عادتها لكتابة شيء من الشعر أو النثر ببعض ما تبقى لديها من فتات العاطفة... عاطفة ليست فقط سجينة ولكنها لا ترغب في أن تتحرر كطير يأبى أن يحلق خارج سربه... نزعت حذاءها وغيرت ملابسها... ارتدت ملابس للنوم مريحة واتجهت نحو مكتبها تريد أن تعزف سمفونية الشجن بنوتات منفية... هاربة من القلب... أي من الوطن...

كانت تظن أنها قوية وهي تكتب وتحرك أقلامها على الأوراق كما تشاء لكنها لم تكن الحقيقة... لقد كانت ضعيفة... وأضعف بكثير مما تخيلت... انحنت... وبكت وعندما جاءتها فرصة لتواجه انكساراتها... انهزمت... لم تكن قادرة على ترويض قلبها كي يكون أقوى وأقسى... كي يصبح مثل كل الذين أساءوا إلى مشاعرها وجرحوا بداخلها هاته الأنثى التي ولدت من رحم الإحساس وترعرعت في منازل حزنه... كم كانت ضعيفة وهي تبلل كل أوراقها بدموع هي بريئة من ملوحتها... من وجعها وقهرها... ارتشفت قهوتها التي لا تفارقها وهي بصدد الكتابة قطرة قطرة كعقاب لها أو لفنجان كل ذنبه أنه كان يحملها... جلست

تضمد جراحها بجراح الورق وتجيب عن تساؤلاتها بأسئلة أكثر منها تعقيداً وتداري انهياراتها العاطفية بابتسامة كاذبة... لفقتها بين شفتيها وقذفت بها بعيداً عن آهاتها وعن حياتها...

أرادت أن تقنع نفسها أن الحب هو طفرة في عالم المشاعر وأنه من المحتمل ألا يكون سوى همزة وصل بين الطرقات والمعابر... بين القرى والمداشر... بين الكلمات والحناجر... وهي في تنقيبها المستمر عن الحياة وأسرارها وحقائقها المقنعة... اكتشفت صدفة أن الحب ليس بلداً متعدد الطوائف بل هو ذلك الوطن الذي لا يعترف سوى بديانة واحدة...

... هو شعور لا يرضى بغير أدوار البطولة في مسلسل الحياة ولا يقبل الجلوس في المنتصفات... إما أن تحب أو لا تحب... لا سلطة للشبهات في تفاصيله... هو واضح وضوح الشمس وسط السماء... ببريقه... بحريقه الذي لا ينتهي في القلوب ولا يزول... هو سر الوجود... وسر البقاء... وسر الشقاء... فكيف لنا أن نعيش بدونه... بدون أفراحه وشجونه... بدون ضحكاته ودموعه... كيف لنا أن نعاديه وننفيه ونحن نعيش به ونسكن فيه...؟

لم تكتب شيئاً... جلست تخط بعضاً من الكلمات المتفرقة التي لم تتجمع في جملة واحدة لترضي ألمها وغضبها وسخطها على كل من حولها ابتداءً من الخدم الذين لا تستلطفهم إلى والدها الذي أصبح يفتقر إلى الكثير من المصداقية... طيارها الذي لم

تفهمه ولم تعرف كيف رمت به الأقدار في طريقها الذي لم يكن معبّداً كفاية كي يسمح لسيارة الحب باجتيازه وكذلك نادية التي كانت تجهل كم هو صعب أن تكون المرأة الناجحة دقيقة في مواعيدها... منضبطة في تصرفاتها وحاسمة في قراراتها... نادية التي تعيش حياة الأثرياء التعساء الذين يقتلون الوقت بعادات يومية يحكمها الجهل وتشيد بها السطحية والعبثية... ونهايتها الحقيقية هي الفشل... خانتها الحروف يومذاك بعمالة القلم الذي قصم وجدانيات روحها المرهفة بسكونه... بسكوته... بفوضى جموده التي نشبت بين أصابعها... فاضت دموعها كشلال جارف عصف بقوته وسرعته متمرداً على الأوراق والأقلام التي كانت أمامها تغيظها بأزمة كلامية مختلفة... متعمدة... منافية لسياسة الدموع وحرية الإفصاح والتعبير... تركت كراستها وذهبت لترتمي على فراش لا يقوى على تحمل امرأة حُبلى بالانكسارات... وحتى بالنجاحات...

غطت في نوم عميق... استيقظت بعده على الثامنة صباحاً بتدقيق ممل تعودته... نزلت البهو لتجد رجلاً غريباً بنسبيته... هو سيد التقته لكنها لم تذكر أين... فكثرة الأشخاص الذين تعرفهم أكثر من خصلات شعرها الأحمر الجريء... كان يجلس برفقة والدها وبين يديه ملف... تأففت وقالت في نفسها:

- ملفات داخل الشركة وأخرى خارجها، يا له من جحيم حقاً...!!

ابتسمت ابتسامة مصطنعة... مبتذلة... كشمس أطلت خلسة من نافذة الشتاء... بدافع الفصول... والفضول... استرسلت تقول...:

- صباح الخير والدي.
- صباح الخير... اجلسي معنا... هذا السيد أحمد... هل تذكّرته؟
- آه... نعم... لقد تذكّرت... إنه شريكنا الجديد في صفقة استيراد الأجهزة الكهرومنزلية... ابتسم السيد أحمد ذو السبعين عاماً في وجهها البريء من أهدافه الغامضة ومسيرة عمله المشتبه فيها والمشوبة بالرشى قائلاً لها:
- أهلاً بك يا سيدة البنات.

استغربت دلال قوله... كأنما كان شعراً أو غزلاً أو ماذا؟

هل هذا هو السيد أحمد بعينه أم نسخة مطابقة له أكثر رقة ورطوبة بفعل ندى الشراكة الجديدة...؟ دخلت المطبخ فوجدت أمها تعد لها القهوة الصباحية التي لا ترضى لأحد أن يعدها غيرها كعادتها، سألتها عن سر وجوده صباحاً بالمنزل...؟

أجابتها سلمى قائلة:

- يقول إنه مسافر إلى ألمانيا غداً... ما جعله يضطر إلى المجيء كي يستشير والدك في بعض الأمور... هذا ما التقطته أذناي صدفة وأنا أمر بالرواق المجاور للبهو...

- كان من الأجدر أن يستشير والدي بالشركة... هذا منزل للعيش... لا للعمل... لاحظت سلمى غضب دلال فقالت لها:
- أنتِ اليوم حادة المزاج وغاضبة على غير عادتك... ما الذي جرى... أو ما الذي عكر صفوك منذ سفرتك الأخيرة إلى فرنسا...؟
- لا شيء... أنا ذاهبة...
- ولكن... لم تأكلي شيئاً... خذي حبة البقلاوة هاته...
- تعرفين أنني أكرهها... هي مليئة بالسكريات... ستقضي حتماً على أناقتي...
- لا أبداً... هي حبة واحدة يا دلال...
- حسناً... سآكلها من أجلك... اليوم فقط.
- سدد الله خطاك في الحياة يا ابنتي...

ما كانت دلال تحتاج إليه قالته سلمى... إنها دعوة جميلة تخرج من قلب مدجج بالحنان... لم تكتفِ سلمى بالدعوة لها بالنجاح فقط وإنما زايدت عليها بدعوات أخرى عن الزواج... وعن الأولاد... ما جعل دلال تبتسم ابتسامة موقتة لتعود بعدها إلى جموح غضبها وبؤسها العاطفي...

- ولكن أمي... هل هي دعوة أم محاضرة؟

ضحكت سلمى وقالت:

- ستجتاحين الدنيا بنجاحاتك ولكن النجاح الأكبر عندما تتزوجين رجلاً يحبك بصدق وتنجبين أولاداً تسعدين برؤيتهم يلعبون ويكبرون حولك ويغدقون عليك الحب.

شابة في الثانية والثلاثين من عمرها لا تريد من الحياة أكثر مما قالته سلمى لكن ناجي لا يعترف بالحب وبقوانينه... لم يرزق طفلاً غير دلال... لذلك اعتبرها سنداً قوياً... ما جعل خسارتها بالنسبة إليه رهان كبير لا يقدر عليه...

صمتت هنيهة ثم قالت:

- ووالدي يا أمي... هل سيقبل أن أتزوج...؟
- بالطبع... زواجك لن يتعارض واستمرارية أعمالك مع والدك... كل الثروة هي ملكك وحدك يا دلال...
- نعم أمي... تقصدين أنني ملكها.

لقد كانت دلال تشعر دائماً أنها مقيدة ومحاصرة... لا تملك من الحرية إلا اسمها أو القليل مما تبقى منها... ثروة أو لعنة جعلتها تنفي أحاسيسها لأن والدها لا يقبل إلا رجلاً يفوق ابنته مادياً لكي لا يكون الخاطب الطامع وتكون هي الكنز الثمين الذي وجده أو الذي عاش طوال حياته يحلم به...

... ثروة جعلتها تجول داخل قصرها وسط حشد من الخدم يكبلون تصرفاتها ويكتمون أنفاسها... ووسط حشد من العمال بالشركة يتربصون بهيئتها كل صباح كي يملؤوا تقاريرهم السخيفة

عن ماركات لباسها وحذائها وحقيبة يدها وحتى كمية الهواء الذي تستنشقه وعدد الخطوات التي تسير بها، ثروة جعلتها مجرمة بامتياز في حق مشاعرها... في حق خيالها الواسع الفائض بالكلمات والذي كان يتطلب مجهوداً أكبر كي تكتب أكثر وأكثر... عن حب يعيش حالة موت في مدرسة الحياة... تساءلت... إلى متى ولماذا وكيف استطاعت أن تدخل سجناً وهي البريئة من كل شيء إلا من عواطفها... كانت ستنصرف عندما ناداها والدها... وهو يحمل شيئاً ما يشبه علبة من القطيفة... دخلت البهو فوجدته جالساً وحده... دعاها لأن تجلس... فجلست:

- نعم والدي.
- هاته هدية بسيطة من السيد أحمد... خذيها.

أخذتها منه... لقد كان خاتماً يبدو عليه أنه باهظ الثمن... سألته:

- وما المناسبة كي يهدي إليّ خاتماً... وما القرابة التي تجمعنا به كي يخطو خطوة كهذه...؟ لقد أخطأت في قبولك إياها...

استاء ناجي من تصرفها... لم يجبها... حمل حقيبته وانصرف مخلفاً إياها غارقة في بحر من الحيرة والشتات... والاستفهامات التي لا تنتهي... امرأة بنضج دلال وحنكتها لا تمر مرور الكرام على مثل هذه التصرفات المشتبه فيها... أيقنت يقيناً حازماً أن الأمر

مخطط له وأن رحلته إلى ألمانيا ليست سوى كذبة اختلقها كي يقدم على هاته الفعلة... خمنت أن تعيد له الخاتم لكنها امتنعت وتراجعت عن ذلك لأن ذلك سيثير غضب والدها وامتعاضه... قررت أن تتصل وتشكره على الهدية علّها تفهم سبب ما أقدم عليه... رغم أنها كانت متيقنة أنه لن يقول الحقيقة.

اتجهت نحو الشركة... طلبت من سكرتيرتها رقم هاتفه ثم اتصلت به.

- ألو... السيد أحمد... انا ابنة السيد ناجي...
- مرحباً... كيف حالك... بخير؟
- الحمد لله... لقد اتصلت بك كي أعلمك أنني أنهيت دراسة ميزانية الصفقة المقبلة ومن الممكن أن نتناقش في تفاصيلها بعد عودتك من ألمانيا.

قاطعها بصوت دافئ... ومرتبك:

- هل أعجبك الخاتم والياقوتة الزرقاء...؟
- نعم... شكراً... ولكن ما المناسبة؟
- بمناسبة الشراكة الجديدة... وكذلك لأن به حجراً نادراً والأشياء النادرة لا تليق إلا بأمثالها.

كانت ستقفل الهاتف لكنها تشجعت قليلاً لتقول له كلمة واحدة أنهت بعدها المكالمة:

- إلى لقاء قريب...

أخذته من حقيبتها وتأملته بعمق كبير... لقد كان جميلاً

بياقوتته الزرقاء... تذكرت أنها قرأت عنه في إحدى المجلات أنه حجر نادر يستخرج من مقاطعة الكاشمير وبورما ويخضع لدراسة عميقة من طرف خبراء المجوهرات وأنه أكثر صفاءً ونقاءً من الياقوت الأحمر إضافة إلا أنه يرمز إلى الحقيقة والإخلاص والمصداقية... شعرت دلال برغبة في القيء وهي تسترجع كل حرف قاله في محاولة بائسة لمجاملتها ومداعبة غرورها... استوقفتها جملة «الأشياء النادرة لا تليق إلا بأمثالها»... صفنت قليلاً بهذا التراص المنتظم بين أحرفها المزيفة ودرجات تناسقها فيما بينها وهو يقولها... لم يكن حدسها مخطئاً... كان شيئاً يختفي وراءها... يستلزم الكثير من الفراسة لاكتشافه... واستخراج معانيه بوضوح أكمل... وهي بصدد التفكير في هذا الرجل الغامض الذي يريد أن يلعب معها لعبة الشطرنج بياقوتته الزرقاء النادرة... رنّ هاتفها... لقد كانت سلمى أمها:

- ألو.. نادية في المشفى... إنها في غرفة الإنعاش.
- ولكن أمي ما الذي حصل...؟
- لقد سقطت عن الحصان وهي تمارس رياضة الفروسية.
- وكيف هي الآن...؟
- يقول الطبيب إن الإصابة على مستوى المخ خطيرة...
- حسناً... أنا قادمة.

همت بالخروج إذا بوالدها يدخل وبيده حزمة كبيرة من الأوراق... لاحظ دموعها فاستغرب قائلاً:

- ما الذي حصل؟
- نادية في المشفى... لقد سقطت عن الحصان... سأذهب لزيارتها...
- ولكن لدينا اجتماع هام بعد ربع ساعة ولا يمكنك المغادرة...
- لكن أبي...
- سنلتقي في قاعة الاجتماعات.

لقد كان قراراً ليس اختياراً... بعنوة وسطوة ونفوذ هو هكذا يفرض آراءه على الآخرين بمعاملات تخلو من المشاورة والتروي واللطف... لم يتعب نفسه حتى أن يسأل عن حالها وكأنها لا تقربه، ذكرها الوضع هذا بصديقه سامي الذي تشك بأنه حضر حقاً جنازته...

في زمن تحكمه الماديات وتعيش فيه الأخلاق حالة انكسار... كيف لا تنحني الأحاسيس وتسير نحو الانحدار...؟ بكت دلال بعيون صامتة... صاخبة بالألم لأنها تريد أن تجد نفسها الضائعة بين دفاتر والدها ومشاعرها المغتربة في وطن تُنسب إليه الحرية على مرأى من كل الذين يفتقدونها...

ماذا لو كان للحرية صوت ولون وحجم...؟

ما الذي كانت لتقوله عن السجون المخصصة للإحساس... وعن المعتقلات المتخصصة في قتل الأنفاس... هل كانت ستطالب بدورها بحقها في الحرية...؟

دخلت دلال الاجتماع مضطربة كأن تهمة تلبسها أو مرضاً يعترض صحتها الجسدية والنفسية... سارعت في إلقاء رأيها النهائي في اجتماع المدراء الثانويين لشركات والدها وهمت بالخروج مسرعة كما لو أنها نجت من فخ قد نصب لها بين القضايا العالقة لإدارة العمل... دلفت مكتبها كي تحمل حقيبتها وتلبس معطفها إذ بها تجد شخصاً غريباً ينتظرها... ابتسم بوجهها قائلاً:

- أهلاً سيدة دلال... أنا نزار سكرتيرك الجديد... عينني السيد ناجي بدلاً من علياء... لم تفهم شيئاً... أحست كأن ورماً يكبر بمخيلتها من هاته الدكتاتورية التي يغوص والدها بأعماقها دون أن يجد من ينقذه...

نظرت إليه بحدة قائلة:

- تستطيع أن تنصرف إلى مكتبك...

كانت ستتصل بوالدها كي تعرف سبب إقالته لعلياء واستبدالها... دون أدنى استشارة منها... لكن قلقها حيال نادية جعلها تنتقل بسرعة إلى المشفى العمومي... ولجته على عجل بدموع نمت بين أهدابها على مهل كنبتة جميلة وضعها حظها البائس في تربة قابلة للانجراف... كي تسقط وتهوي ثم تموت... وجدت الكل هناك، عمها سمير وزوجته وأولاده... والحزن يركض مبتهجاً بين تقاسيم وجوههم الباكية... استغربت وجودها في مشفى عمومي مع أن عمها سمير ثري ويستطيع أن يدخلها مصحة خاصة بأبهظ الأثمان...

خرج الطبيب من الغرفة قائلاً:

- وضعها حرج جداً... ووضع قلبها في تدهور مستمر... ادعوا لها بالشفاء...

كم كانت دلال وقتذاك في حاجة إلى طبيب آخر بالمئزر نفسه والوجه نفسه والملامح لكن بصوت آخر وبكلام أقل صدقاً... وأكثر بعداً عن الحقيقة... انجرفت دموعها من أعلى هضبات عيونها وبدت لها كل الأشياء من حولها أسطورة قديمة جداً لا يمكن تصديقها في زمن باتت الأسطورة نسجاً متميزاً للعملات الصعبة.

انهارت والدة نادية بالبكاء وغطّ سمير في شجن عميق لا يليق بالسعادة المتنامية بين تلال نفوذه وجبال ثروته فأمست العبرات يومذاك في معركة مع الكلمات... من سيغلب من...؟ ومن سينصف الأحزان أكثر... وهل كانت الأقوال لتكون أبلغ من الدموع وأجدرها خطابة في ملتقيات الهموم ومنتديات المصائب...؟

أحست دلال يومذاك كأنها تتعرف إلى الحياة من جديد في زمن لم يكن قط ملائماً للتعارف... لا لأن التعارف غدا وسط الاستثناءات الصغيرة قاعدة كبيرة ولكن لأن الحياة تعودت منذ صغرها أن لا تطلع بطاقة هويتها لأشخاص لا تعرفهم جيداً...

ترجى سمير الطبيب بنقل ابنته نادية إلى مشفى خاص فأكّد له الطبيب أن وضعها حرج جدّاً... ولا يحتمل نقلها من مكان إلى

مكان... كما أن وجودها في المشفى أكثر أماناً لها بوجود أطباء أكفاء ومتخصّصين... ببضع كلمات مرتجفة طلبت والدة نادية من دلال أن تُحضر حقيبتها ومعطفها من النادي المشؤوم فاستجابت فوراً لطلبها وراحت تسكب بعضاً من خطوات الأمل في طريق لم يكن مساره معلوماً كفاية كي يواجه المستقبل بمتاعبه المرهقة وغموضه القاتل... دخلت النادي مسرعة فالتف الجميع حولها يسألها عن أوضاع نادية التي تعيش لحظات فاصلة بين الموت والحياة في مركز يدعى مشفى... كتعريف عام وشامل للشفاء... ولكنها الأقدار أحياناً تعادينا وترفض تعاريفنا للأشياء... ولا تقبل أسامينا المخطوطة على المداخل والمخارج... على الأرصفة والطرقات... على الشواهد بالمقابر وعلى دفاتر الولادات...

هل كان المستشفى ليكون أكثر مصداقية لو أُضيفت له كلمة أحياناً أم أنها حتى البطاقات المخصصة لتسمية المراكز عندنا تعيش في المنتصفات وتتغذى بنسيبتها المطلقة؟...

كان الكل يتحدث حول دلال عن الحادث إلا هي التي كانت دموعها أقوى صدى وأبعد مدى من مدافع حروفهم المتّقدة بأسفهم وحزنهم عليها... حملت الحقيبة والمعطف واتجهت مباشرة نحو منزلها أخذت حماماً خفيفاً بارداً ملائماً لحرارة ألمها وسخطها على الأيام... انزوت في الصالون تبحث عن شيء لتراه في التلفاز علها تهدي للنسيان علبة حلوى في عرس الذاكرة... تساءلت وقتذاك عن هذا السر العظيم الذي تضمره

الحياة للأشخاص المتمسّكين بها كقشّة خوفاً من الغرق فيها... فهل كانت الحياة لتكون البحر أم القشة نفسها...؟ !! وهل كانت لتداوينا بابتسامات موقتة بعد حزن مستديم يأبى الرحيل دفاعاً عن كينونته وعن وجوده وافتخاره بانتصاراته الدائمة في معاركه مع الإنسان؟

لاحظت الخادمة ارتباكها فقررت أن تحضر لها شاياً مع بعض المكسرات علّ ذلك يهدّئ من روعها... وضعت الصينية أمامها فإذا بدلال تصرخ في وجهها بتمرّد شديد:

- من أمرك بإحضار الشاي؟
- لا أحد... خطر على بالي أن هذا سيعجبك...
- لا... أكيد أن أمي لم تعد تتحكم في شؤون المنزل كما يجب خذي الصينية واغربي عن وجهي... فجأة تذكّرت أنه كان من الأحسن أن تأخذ معطف نادية وحقيبتها إلى منزل عمها... فقرّرت أن ترتدي ملابسها من جديد لإيصالهم... ركبت السيارة وتوجهت نحو بيت عمها الذي لم يكن بالبعيد.... وهي تنزل منها على عجل إذ بالحقيبة تفلت من يدها دون أن تشعر... كان بداخلها الكثير من الشكولاتة... علبة صغيرة للمكياج... قنينة عطر كبيرة وأخرى صغيرة... هاتفها النقال وشيء آخر ألقى بدلال في غرفة إنعاش محكمة الإغلاق بمشفى للأصحاء... لا للمرضى... ساعة يد سويسرية طبق

الأصل للتي اشترتها للطيار... مرفقة بوصل يحمل اسم الساعة.... ثمنها والمحل المشتراة منه... دُهشت لما قرأت أنه المحل نفسه الذي ابتاعت منه ساعة ليدها وأخرى اختارتها له بناءً على طلبه... كاد يغمى عليها من شدة الاحتقان الفكري لافتراضات عبثية مرّت بعشوائية على جسور مخيلتها كقطار سريع ومباغت...مرّ في لمحة بصر على صورة ثابتة لطبيعة خلابة مخرباً بسرعته تلك كل التفاصيل المهمة لجمالها الأخّاذ...

أحست وكأن كلماتها أصبحت رهينة في معاقل الأشجان... وسجينة في منازل بؤسه... بعدما كانت تجول حرة طليقة في ساحات مخصصة لحرية التعبير وبلاغة اللسان... لم تعد تستوعب ما تراه بين يديها... هل هي بالفعل ساعته أم أنها لشخص آخر تعرفه نادية كان قد ابتاعها من المحل الراقي نفسه لبيع الساعات السويسرية بفرنسا... خامرها شعور دفين بأعماقها أنها له... لا لأحد غيره... خصوصاً وأنها تذكرت يوم التقائها به في المطعم يوم دعتها نادية للغداء معها... لم يبقَ للشك سوى خيط رفيع يربطه باليقين... هو تاريخ شرائها... لقد كان الشهر نفسه ديسمبر والعام نفسه ٢٠١٨ إلا أن اليوم بدا لها ليس هو نفسه... لذلك قررت إعطاء الحقيبة والمعطف لوالدتها والعودة مسرعة إلى المنزل كي تعرف التاريخ كاملاً... كانت الطريق طويلة جداً تحفّها أشجار المجهول بثمارها المترهلة المذاق... والمبتورة من

كل الأوراق... لم يعد للصبر حينذاك مكان يجلس فيه بمحاضرة رسمية لمادة الأحزان في معهد الحياة... عاشت دهراً في وقت لا يتطلب أكثر من عشر دقائق... أيقنت بعدها أن المسافة الحقيقية بين الأشياء لا تُقاس بالأمتار ولكن بذلك العدد اللامتناهي لانكساراتنا في مدرسة الأقدار...

سجلت رقماً قياسياً في العودة وصعدت أدراج منزلهم الفخم بما يعادل خطوة واحدة لكل ثلاث درجات... غير آبهة لما كان سيحصل لها لو تعرّضت لحادث ودون شعور منها وجدت نفسها تنقب عن وصل شراء ساعتها محدثة بذلك خراباً في رفوف خزانتها البريئة من هذا الإعصار المفاجئ الذي حل بغتة ودون سابق إنذار بأجزائها التي غدت أشبه بأشلاء لحرب عالمية بدأت في غرفتها وانتهت فيها بورقة مفقودة وسط الضحايا الأبرياء... نعم لقد اختفت الورقة في وقت كانت دلال في أمس الحاجة إليها... نزلت مسرعة إلى البهو لتصدر أمراً فورياً لا يحتمل شيئاً سوى التنفيذ... نادت الخدم وبصوت مرتفع قالت:

- ضاع مني وصل شراء ساعة يد... لذلك فإني أطلب من الجميع البحث عنه جيداً لأنه مهم جداً بالنسبة لي... أرادت دلال أن تستيقظ من هذا الحلم المزعج الذي نسجته نادية وساعتها في معادلة معقدة بمجهول واحد... كان من الممكن حلها في لحظات لو أن الوصل لم يكن مرافقاً لها...

ما هي الحياة...؟ وما نحن بفاعلين بين أسوار عذابها المؤرقة؟

لياليها المرصعة بنجوم القهر...؟ وأوراقها المتساقطة على مدار السنة كاستثناء مناخي مبرر الوجود...؟

من الذي رمى بالطيار في طريق دلال كحجر تعثرت به أقلامها الباكية....؟ وهل كانت الانتكاسة الصحية لنادية ستكون أقل حدة لولا الساعة التي أحدثت انقلاباً على مملكة الحقيقة لتشيّد جمهورية للمنتصفات...؟ تساؤلات عديدة واستفهامات ومحاولات باءت بالفشل... غاصت بداخلها دلال وترسبت أفكارها بقعرها دون أن تطفو مجدداً...

كم كان لون الحب حزيناً يومذاك... وهي تتيقن حقاً من هذا الشعور الذي زلزل كيانها باضطراب جوي جميل...

جاءت الخادمة مسرعة بالورقة قائلة:

- سيدتي... لقد وجدتها...
- أين كانت...؟
- بغرفتك مختبئة بين الإكسسوارات...

أحدثت هاته الكلمة «مختبئة» قشعريرة بجسد دلال تمنت لو أن الورقة كانت بالفعل شخصاً يستطيع أن يظهر ويختبئ والأهم هو أن يموت... كي تموت بعده آلامها بعد هاته الهدية الصاخبة بالأسرار والتي أهدتها لها نادية يوم عيد ميلادها الذي كان سيكون يوماً جميلاً لولا الحدث المشؤوم... حملت الورقة بيدها...

صعدت غرفتها لكنها لم تفتحها... أصابها ذعر وخوف شديدان وتصاعد دخان احتراق فؤادها بنار المجهول المقتول بين طياتها وكلماتها... وتاريخها الذي لا يزال بريئاً حتى تثبت إدانته.

نظرت حولها... إلى كل الأزرار... تلك التي تفتح الباب وتغلقه... تشعل التلفاز وتطفئه... تشغل شيئاً أو تعطله... بكت دونما دموع... لأنها لا تستطيع أن تحصل على كل شيء تفتقده... زر واحد كان سيكون كفيلاً بتعطيل محرك الأحزان وجعله يغط في سبات عميق... فجأة دخلت عليها أمها تحمل شيئاً يشبه الهدية... لا بل كانت هدية جميلة جمال القلب الذي تحمله... ابتسمت في وجهها قائلة:

- كل عام وأنت بخير عزيزتي... استغربت دلال كلامها فسألتها:
- لماذا يا أمي...؟
- اليوم عيد ميلادك.
- شيء جميل أنك تذكرت وسط هذا الصخب المريع الذي عشناه بسبب حادثة نادية...
- أبداً يا دلال... أنا لا أستطيع أن أنساه حتى ولو تعمدت فعل ذلك.

ككل مرة... تستطيع الحياة كلاعبة ماهرة أن تنقذ مرماها من هدف محقق لبؤس محتوم وتجتاز الكآبة كحصان عربي أصيل لا يعرف الهزيمة... وتكون في النهاية الأكثر سعادة وهي تنتصر

على كل أعدائها لتحافظ على ملكها لأطول مدة ممكنة في لعبة الشطرنج...

... نعم... هذا ما شعرت به دلال حيال الحياة وهي ترى ابتسامة أمها... وهديتها وحنوها عليها... لقد كان الفرح يغمرها ببعد لامتناهي الوصف... استجمعت قواها فولدت بداخلها تلك المرأة الحديدية من جديد... بتمردها وجبروتها وعنادها الوفي لقوة شخصيتها... نهضت لتفتح الهدية الموضوعة إلى جانب الورقة فحثتها نفسها على فتح الورقة أولاً... تشجعت وبقلب هارب من الخوف ومكامنه وجدت نفسها تقرأها بعيون تكحلها اللهفة ويلبسها الانتظار... كان التاريخ نفسه... والشهر نفسه... والحزن نفسه الذي كان سيتلاشى بابتسامة سلمى والدتها... لم تكن كذبة أفريل... لقد كانت حقيقة ديسمبر... الشهر الذي اشترت فيه الساعة... لم يعد بفمها كلام تقوله... ولم يعد بعقلها أفكار لأنه استنفد كل رصيده منها في هاته المكالمة الأخيرة مع الأقدار...

كم أنت مباغتة أيتها الحياة... وكم يلزمنا نحن من الفكر والروح كي نفهمك ونفك شيفرات تناقضاتك الصعبة التي لا تنتهي بانتهائنا... يا امرأة طاعنة في السن تداعبنا بحنكتها الأبدية لتأخذ من طفولتنا أجمل ما فيها وتهدي إلينا بدل الدمية اللعينة تشكيلة مثيرة للجراح اسمها لعبة الحياة...

أيقظها والدها صباح اليوم التالي بصفارة الحكم صاحب البدلة السوداء لمباراة قضت شوطها الأول أكثر بشاعة من اسوداد

بدلته ليخبرها أن الشوط الثاني سيبدأ بفريق الياقوتة الزرقاء للسيد أحمد والذي جاءه خاطباً إياها بتوسل شديد... جلس إلى طاولة فخمة مدججة بأرقى أنواع الحلوى ليملي قراره الفقير من كل ما هو غالٍ وثمين.. وخالٍ من كل الأحاسيس التي تشكل خريطة أصلية لمعالم الإنسان ككائن تجتمع فيه الروح بالجسد في ثنائية لا تزول إلا بالموت ولا تتم إلا بهاته التركيبة المعجزة للخلق... ركضت كلماته فوق لسانه لتصطدم بمسامع دلال على عجل قائلاً:

- السيد أحمد يود الزواج بك وأنا موافق...

صمتت... لم تجبه... لا بدافع الحياء ولكن بدافع التشبع والارتواء من هاته الدكتاتورية التي تلازمه كقهوته الصباحية ومشاريعه الأزلية... كانت ستستفيق طبيعياً من المخدر الذي حُقنت به وهي تقرأ الوصل المشؤوم لولا أنه زادها غرقاً في هذا الكابوس الذي يأبى أن ينتهي برواية جديدة للسيد أحمد الذي تعود امتلاك كل شيء بثروته ونفوذه واكتساحه لكل الصفقات بالبلد عن طريق الرشى والصفقات المشتبه فيها... ابتسمت في وجهه قائلة:

- أنا لا أتزوج برجل متزوج يا أبي... لا أستطيع فعل هذا أبداً...
- ليس لديه زوجة... لقد ماتت منذ سنين... فقط لديه ولدان كبيران... أقصد في مقتبل العمر... لم تكن الطاولة يومذاك مخصصة لعقد الاجتماعات... كانت للقهوة فقط لا أكثر... لكنها استحالت إلى حلبة مصارعة كلامية بين

دلال ووالدها حول صفقة عمرها التي يعتبرها هو إحدى صفقاته الرابحة فالسيد أحمد أكبر رجال الأعمال وأقربهم إلى السلطة... مصاهرته بالنسبة إليه ستكون مكسباً عظيماً لنمو شركاته واتساع رقعتها الجغرافية بنسبة أرباح لا تقدر بثمن...

كانت الحياة من وجهة نظر ناجي عملة صعبة ومن وجهة نظر دلال عملة أصعب... عملتان تختلفان في المقاييس والأهداف والأبعاد بمنطلقات متباعدة المصدر... بين المال والإحساس عاشت دلال رهينة لحياة فُرضت عليها كالمقرر الدراسي الذي يفرض على تلاميذنا على مدار السنة دون أن يكون هناك درس واحد من اختيارهم... احتراماً للحرية...

غادرت بصداع شديد على مستوى الرأس والقلب... كانت ستتجه إلى الشركة لكنها استدارت واتجهت إلى المطعم الذي التقت به طيارها البعيد الأقرب من القريب... دلفته متعثرة بدموعها... وبصوتها الصامت الذي لم يقل شيئاً... جلست في المقعد نفسه الذي كانت تجلس عليه يومذاك... زارتها الذاكرة وقتذاك بدعوة منها لتجلب لها كل الصور الجميلة من ألبوم الماضي... لاحظ النادل دموعها المتساقطة من شعيرات رموشها الذابلة فسألها إذا ما كانت بحاجة إلى شيء فردت قائلة:

- كوب ماء من فضلك...

تساءلت لماذا دعتها مشاعرها إلى ارتياد هذا المطعم

خصوصاً... هل كان لسكب العديد من العبرات على طاولة خُصصت للأكل لا للبكاء...؟

اعتبرتها خطوة سديدة بعض الشيء كي تتمكن من ترقيع سترة جراحها المليئة بالانتكاسات العاطفية بخيط جبان للأمل لم يكن لديه من القوة ما يكفي ليرمم حطام امرأة منكسرة...

فتحت هاتفها النقال لترى صورة لطالما تمنت لو كانت هي المرسومة بداخلها بدل الطفل... لوحة رائعة للرسام الإسباني بيردل بوريل كان اسمها «الهروب من الإطار»... طفل صغير يهم بالخروج من إطار اللوحة كي ينفذ من الحدود التي أجبروه على العيش بداخلها والتأقلم مع ما فيها من انتهاك للحرية الشخصية والإرادة الذاتية... لماذا يرفض بعضنا الخروج من الأطر الموضوعة المهينة للإنسان ككائن بشري حر لا يرضى لحريته ببديل حتى ولو كان هذا البديل ثروة مادية لا تحصى... ولماذا نحصر حرياتنا في أطر افتراضية من الممكن أن نتحداها ونتجاوزها بمجرد الإيمان بأن الأقدار التي ارتضاها لنا الله هي الإطارات الأجمل على الإطلاق لأنها مرفقة بقرآنه الكريم وسنته النبوية الشريفة... إلى متى نرغم أعمارنا على عيش عمر آخر من الخضوع ومن النكران لما كان يجب علينا أن نكون عليه بمنأى عن القيود التي كُبلت بها أيادينا وأرجلنا وأفكارنا وحتى قيمنا الأصلية كي لا نخرج من نفق العتمة والجهل إلى مساحات شاسعة للثقافة والعلم... بهدف تحررنا من التبعية العاطفية والسلوكات الاجتماعية التي تضعنا في

قوالب لا تتلاءم وانسيابية أحاسيسنا وحتى مرونة أفكارنا وقابليتها للتغيير والتطور... هناك أشخاص يؤمنون بأن واحداً زائد واحداً يساوي اثنين ولكن النتائج من الممكن جداً أن تختلف في الواقع تبعاً لأهوائهم ومصالحهم الشخصية المشبعة بالغرور والأنانية وحب الذات المستقاة من أنظمة سيرت شعوبها بسياسات الهيمنة والسيطرة على كل شيء... حتى المشاعر...

أشياء صغيرة وجميلة تعيش بداخلنا... أبسط حقوقها هو أن تكون حرة وطليقة في دولة الوجدان... هاته الدولة التي عانت على مر الزمن ترسانة الرجعية والتخلف والاضمحلال الفكري الذي يعمل جاهداً على العبث بكل ما يزيد الإنسان قيمة بعمق تصوراته... وجسارة عقله الذي يميزه من الحيوان.

المشكلة كلها تكمن في أننا تعلمنا منذ الصغر أن لا نكتب على هامش الورقة احتراماً للخط الأحمر وانتهجناه أسلوباً أبدياً لكل معاملاتنا في الحياة... فمتى سنزيل هذا الخط الأحمر بكراريسنا ونمحوه من عقولنا... هذا الخط الذي لم تكن له فائدة على مر العصور سوى إجهاض بعض الكلمات الجميلة التي كانت ستولد بين أسطره...

وهي تتأمل الصورة بشرود واضح إذا بهاتفها يرن... لقد كان والدها...

- أين أنتِ... نحن بانتظارك... لدينا الكثير من الأعمال اليوم

أجابته بنبرة حزينة خالية من الأمل...

- أنا قادمة... ربع ساعة وسأكون هناك... خرجت من المطعم مخلفة وراءها نبضات كانت في يوم ما ملكاً لقلبها... وكوباً من الماء... ارتشفت منه مقدار ملعقة قهوة كأنه كان دواءً لا لون له ولا طعم ولا رائحة كأيامها المبتورة من شجرة الأحزان... ركبت سيارتها وهي في الطريق اتصلت بها والدتها لتقول لها إن أوضاع نادية في تحسن... كم كان الخبر مفرحاً بالنسبة إليها خصوصاً وهي تدرك أن نادية تخطو خطوات سريعة ومريعة نحو الموت... دخلت الشركة مبتسمة وبعيونها تحكي الحياة على ولادة أمل جديد... كان من قبل بعيداً...

لاحظ والدها هاته الإشراقة المفاجئة بوجهها فظن أنها اقتنعت بفكرة الزواج بالسيد أحمد الذي يكبرها بـ ٣٥ عاماً... رجل يريد أن يعود إلى شبابه بزواجه فتاة فتية... جميلة جريئة وثرية... لكنها ويا للأسف لا تعرف معنى أن يكون للإنسان شخصية... امرأة جزائرية تملك كل شيء إلا ذاتها وبعضاً من الأوراق كي تكتب... لا لتقول الحقيقة ولكن لكي تكذب وتقول إنها بخير... وإنه لا شيء ينقصها سوى المناديل لأنها تريد أن تبكي أكثر...

بأي حق تصادر أحاسيسنا وتنفى من صدورنا ومن قلوبنا... من موطنها الأصلي الذي لا تعيش سعيدة إلا وهي بين أحضانه ثم نركض نحن وراءها كطفل صغير شردته الحروب لتجعل منه أسيراً ليتمه وبؤسه وشقائه...

المأساة الحقيقية ليست مسألة طاعة أو عصيان كذلك ليست قضية تصريح أو كتمان لكنها معادلة معقدة وضعتها الأقدار ككمين في امتحاناتنا الحياتية كي ننجح أو نفشل بمعدلات متفاوتة الدرجات... وبينما نحن نفكر في قبولنا أو رفضنا ننسى أنه كان من الأولى ألا ندخل امتحاناً نربح فيه كل موادنا ونخسر من أجله أهم مادة وهي أحاسيسنا... لربما هي فلسفة تستمر الحياة بها أو بدونها لكنها الحقيقة الخانقة التي أصبحت متداولة كسلعة جميلة في أسواق الدكتاتورية تُلزمنا بشراء أثمن الأشياء المعروضة على طاولاتها بأموالنا ولكن بإقصاء حرياتنا وانحناءاتنا... وانكساراتنا...

بعد يوم مرهق من العمل عادت دلال إلى منزلها وكلها أمل أن تجد الدعم والمساندة من أمها كي تقنع والدها بالإذعان لفكرة زواجها هاته... وجدتها جالسة في البهو ترتشف منقوعاً للحلبة... وبيدها منديل... كان من الواضح جداً أنها مترشحة أو مصابة بزكام حاد...

- ما بك أمي... لماذا... أحضرت البطانية إلى الصالون.
- أشعر ببرد شديد... أظن أنني مصابة بزكام.
- ... ولكن اصعدي إلى غرفتك واستريحي... سأحضر لك دواء ينفع فهاته الأعشاب لا تجدي نفعاً...
- ما أعرفه هو أنك فتاة تدرك إدارة الأعمال لا قراءة الأدوية والأعشاب...

لقد كانت سلمى غاضبة من دلال لأنها ناقشت والدها صباحاً

بأسلوب غير لائق لا يتناسب ورزانتها وحنكتها في تسيير شركات والدها لكأنها كانت فتاة أخرى...

لاحظت دلال تجهمها وغضبها فسألتها قائلة:

- هل أنت غاضبة مني يا أمي...؟
- لم يكن قط من اللائق أن تجادلي والدك في مسألة زواجك... هو أدرى بمصلحتك منك... لم تجد دلال ما تقوله... كان هذا دليلاً قاطعاً على موافقة والدتها بهاته الصفقة الملعونة... صفقة الموت لا صفقة العمر...

كانت ستقول لها إن الأمر خطير وإن مسألة زواجها هي قضية عمر ومشوار ستكمله مع رجل لا يستطيع أن يعيش معها الحياة لأنه عاشها بتفاصيلها الحلوة والمرة... ولن يحسن أبداً قراءة أحاسيسها وعواطفها كما تريد وتشتهي.

كانت ستقول إنها لم تحب قط عملها الذي تتقنه بامتياز والذي يحسدها عليه الكثيرون... وتعترف لها أن بداخلها شاعرة كبيرة رأس مالها كلمة عطف صادقة... ترفض الأموال والصفقات والعملات الصعبة... لكنها تراجعت... لأنها أصبحت أكثر ضعفاً مما كانت عليه... أكثر قهراً وهي ترى بعيونها وتشعر بفؤادها المحترق هذا التواطؤ بين أعز الأشخاص إليها... عليها...

كم هو مؤلم أن يصبح الشخص نفسه الذي كان مصدر أمنك وسلامك مصدر خوفك وآلامك... وتغدو هارباً منه إلى الدنيا بعدما كنت تفر منها إليه... كم هو بشع أن تجفف دمعك بمناديل

أشخاص هم أقرب إليك من روحك ليصبحوا في وقت آخر رايات سوداء تحجب عنك أشعة الشمس ونورها...

هل أحزاننا هي مولود جديد لابد من خروجه إلى الحياة أم أنها تلك الولادة المبكرة لانكساراتنا واحتضاراتنا...؟

لاحظت سلمى صمتها وبؤسها الذي تجلى في عينيها المغرورقتين بالدموع فقالت لها:

- ستكونين سعيدة جداً مع السيد أحمد... لقد وعد والدك أن يضعك في عينيه.
- ولكن... أمي... لا أريد أن يضعني أحد في أي شيء... أريد أن أكون حرة وأختار زوجاً يناسبني... إنه رجل عجوز يا أمي هل تريدون أن أموت وأنا حية... أخبريني...
- أمواله وثرواته التي لا تنتهي ستجعل منه أصغر الشباب في هذا البلد...
- أبداً يا أمي... الأموال لا تختزل السنين ولا تستطيع أن تجعل من العجوز شاباً... ولا من الشاب رجلاً عجوزاً.
- وما أدراك لو تزوجتِ برجل صغير في السن أنك ستعيشين هانئة سعيدة بالمستوى المادي نفسه الذي أنت عليه الآن... هذا إذا لم يكن رجلاً طامعاً في ثروتك...
- عمره خمسة وسبعون عاماً يا أمي... هذا لا يعقل... لن أتزوجه... مهما فعلتم...

صعدت دلال إلى غرفتها وهي تبكي بألم... بوجع شديد هز

عاصمة السعادة ببلدها... لم تستطع مراكز ترقب الزلازل الشعورية أن تترصده أو تعرف عن مدى خطورته شيئاً...

ارتمت على سريرها كطفل صغير يمارس القفز لأول مرة علها تجد به حضناً لا يستطيع أن يخدعها لأنه لا يشعر ولا يتكلم ولا يصدر أصواتاً مزعجة كالتي سمعتها اليوم...

عانقت وسادتها بتشبث كبير لا لتنام ولكن لكي تزرع بعضاً من الدمع فوق أراضيها.... كانت ستغفو من شدة الإرهاق العصبي الذي تعرضت له إلا أن هاتفها الخلوي رنّ بصوت مفاجئ كالأقدار... ظنتها والدة نادية لكنها لم تكن هي... لقد كان السيد أحمد... كانت ستغلق الهاتف أو تحمله وترمي به من النافذة أو تضربه على الأرض فينشطر خمساً وسبعين قطعة كي تتلاءم وعدد سني عمره... لكنها تشجعت وأجابته.

- ألو...
- أهلاً.... دلال... أنا السيد أحمد.
- نعم... ماذا تريد...؟
- أريد أن أقول لك شيئاً...
- نعم... تفضل... الوقت متأخر... سأنام.
- حسناً... كنت سأقول لك إننا نستطيع أن نضحي بكل القطع في لعبة الشطرنج إذا كان الملك عزيزاً علينا... لكننا سنُجبر على الاحتفاظ بالكل إذا لم نكن نحن أعزاء عليه ومقرّبين من قلبه....

- وإذن... ماذا تقصد...
- أقصد أنه من لا يستطيع أن يحبك لا يقدر على التضحية من أجلك... لذلك فقد قررت أن أتكلم ووالدك غداً صباحاً لألغي فكرة الخطبة... وأنا أعتذر منك لأنني تسببت بحزنك.
- ولكن....

أقفل الهاتف تاركاً وراءه دلال تفكّر كيف أن السيد أحمد توصل إلى كل هاته الحقائق بالرغم من أنه بعيد... شيء غريب... أم أنه يقرأ الفنجان أو يستعين بالحاسة السادسة.

أثارت كلمات الحب والحزن والإحساس والتضحية تشويشاً على قنوات الفكر بتلفازها المهشم... خالجها شعور بأنها ما زالت لا تعرف عن الحياة شيئاً... استنتجت من مكالمته أنه رجل لا ينقصه شيء سوى أن يُحب... لربما كان في مثل وضعها محاطاً بأشخاص لا تجمعه بهم أية صلة سوى المصلحة... مشاعر الصدق والنزاهة بالنسبة إليه أصبحت مستحيلاً أو ضرباً من الخيال... كان كلامه جميلاً جداً بالرغم من سنه واعتذاره كان أجمل في مجتمع يفتقر إلى الكثير من هاته الثقافة...

قال عنها إنها نادرة كالياقوتة الزرقاء وإن الحب هو رأس مالها وأنه لا يريد أن يتسبب بحزنها... هل كان هذا كافياً لتقبله وترمي بسني عمره الكثيرة جانباً في محاولة لنسيانها وتهميشها.... لم يكن بوسعها شيء تفعله سوى أن تخط بعض العبارات فوق أوراقها التي

لا تنتهي لربما تنتفض أو تثور أحرفها التي قدر لها منذ العصور أن تعيش وسط أربع حافات للورقة كإطار لا تجدي محاولة الهروب منه منفذاً... لا لأن كلماتنا لا تحسن الفرار ولكن لأن أوراقنا تموت بدون كلمات...

كالغريق عاشت دلال لحظات تفكر إذا كان هذا الزواج ملائماً لها أم لا... تريد أن تنجو إلى بر الأمان وتنقذ نفسها من سلطة والدها وهوسها في العيش خارج جدران قصره... أن تعيش بسلام خارج ميادين حربه... وتحلق بعيداً عن سربه المليء بالأصدقاء الذين لا يملكون من الصداقة سوى اسمها... أعداؤه الذين يكنون له الحب والاحترام... لا لشيء سوى المصالح وحتى أقرباؤه الذين قطع صلته بهم منذ سنين لأن مستواه المادي لا يتناسب وملابسهم الرثة كما لو أنهم كانوا بالنسبة إليه طفيليات تتطفل على جاهه وثروته... كم هو بشع أن تجعل منك أموالك شخصاً آخر يفتقد الكثير من الإنسانية والطيبة والأخلاق الحميدة التي كان من المفروض علينا اتباعها من سنة رسولنا الكريم الصادق الأمين وكتاب الله عز وجل الذي لم يترك شيئاً إلا وأحصاه رأفة ورحمة وحباً بعباده المخلصين... ما معنى أن تكون ثرياً وليس لديك أقارب أو أن تكون غنيّاً وقد غادرك ذاك الطفل الصغير البريء الذي لولاه لما أصبحت رجلاً... طفل برغم صغر حجمه وضعف بنيته وهشاشة صوته... وأفكاره المحدودة البريئة من المكر ومن الطغيان إلا أنه أقوى بكثير من أن تقنعه بأن لا يغادر... لأنه عندما

يكتشف أنك أصبحت مخادعاً ومنافياً لمبادئه الصادقة سيرحل ولن يعود إليك مجدداً...

هذا ما جعل دلال تعيش طوال حياتها بين خطين متوازيين لا يلتقيان... الأول تمردها وسلطتها ونفوذها والثاني إحساسها وحبها وحفنة المشاعر التي تلتهم قلبها التهاماً...

نظرت إلى المرآة محاولة معرفة نفسها أكثر... تشخيص تقاسيم وجهها بتفاصيل أكبر والخوض في أسئلة كثيرة لا تنتهي مفادها هو الوصول إلى حقيقة شعورها حيال وضع فرض نفسه عليها في وقت غير مناسب لاكتشاف قارة جديدة للعذاب في خريطة لم تكن لجغرافيا الإنسان وإنما لتاريخ الأحزان... فترة قصيرة كانت كفيلة كي تجعل من قلبها عشاً صغيراً لطائر وثق بطائرة من طراز بوينغ أكثر من ثقته بجناحيه وظل محلقاً بعيداً عن عشه لأن الحرية كانت مهنته المفضلة منذ الصغر... اعتادت دلال وضع مخططات وأنظمة وهياكل ومشاريع مدروسة بعناية فائقة بعيداً عن كل المنتصفات التي من المحتمل جداً أن تتعثر بها لكن الحياة فاجأتها بصفقة عمرها الأصعب والأكثر تعقيداً على الإطلاق... رحلة شراكة لا تنتهي بتوقيع على الأوراق وإنما بتوقيع عاطفي يدوم سنوات ويستمر كما تستمر الخطوات في إنجابها للعثرات...

ما الذي أوصل ساعة الطيار إلى حقيبة نادية وما الذي جعل السيد أحمد يخطبها ثم يتراجع عن قراره...

انتحرت كل الأفكار من مخيلة دلال وباتت الشكوك تتربص بها كما يتربص النسر بفريسته قبل الانقضاض عليها...

عدلت أحمر شفاهها وأسدلت خصلات شعرها من جهة واحدة فوق كتفها اليسرى وتكحلت بسواد ليلها المحاصر بنجوم جندت للحفاظ على سلامة عتمته ثم لبست بدلتها الخاصة بالنادي... كان قد مر عليها من الزمن وقت طويل على ركوب الخيل... استوقفتها أمها بخوف شديد:

- ألم يحن الوقت كي تتخلي عن هاته الرياضة المشؤومة...؟
- لا أبداً... ما حدث لنادية كان قضاءً وقدراً ولكن ما يحدث معي الآن شيء لا يتحمله الحجر... غادرت دلال المنزل مخلفة وراءها قلب امرأة يحترق من الخوف والرعب على فلذة كبدها الوحيدة التي لم ترزق سواها... ناثرة دموع الحنان في كل مكان حولها... كم كان الحنان يومذاك يتيماً... بريئاً من الأقدار ومن الإعصار ومن فتاة تريد أن تبني سعادتها في وطن لا مكان فيه لصنّاع القرار...

جثت سلمى على ركبتيها وهي تقول في نفسها:

- حماك الله يا ابنتي من كل مكروه...

وهي تئن كعجوز فقدت كل أسباب الحياة كانت دلال تمتطي حصانها العربي الأصيل غير آبهة لمعاناة أمها وخوفها... تريد أن تجتاز كل الحواجز كي تصل إلى أمكنة لا تناسبها... حاولت

جاهدة أن تعقد صفقة بين الذكاء والوجدان في منطقة وسطى مخصصة للصلح بين العديد من المبادئ المتناقضة للحياة...

ما معنى أن تكون مشاعرنا ذكية أو عواطفنا متقدة البصيرة.؟

الذين درسوا عن الذكاء العاطفي لا يعرفون عن قوانين الإحساس شيئاً... ولا يدركون مدى خطورة الهدف الذي تصوبه نحونا عواطفنا الجياشة دون أن يكون لنا بمرمى الشعور قانون واحد كفيل بحمايتها وجدير بسلطته العلمية التي اعتقدت يوماً أن مشاعرنا من الممكن أن تقنن وتدرس ويكون لها وقت أو زمن محدد أو حتى معاهدة تنص بنودها على أن الذكاء أقوى من الشعور... لا أبداً... لقد أخطأ من ظن أننا نفكر قبل البكاء ونخمن قبل الحنان ونكتشف معادلة جديدة للحياة هي أجمل من جمع كل مشاعرنا الطيبة وطرح كل أحزاننا وقسمة الخير على البشر وضرب ألد أعدائنا... وكل هذه العمليات... هل تساوي الحياة...؟

هل يستطيع الذكاء أن يفصل الحياة عن التعقيدات وهل يقدر أن يمنع أحاسيسنا من العيش أحياناً في الماضي والحاضر والمستقبل في آن واحد مع عصير لذيذ للذكريات...؟

كطفل يستوحي ابتسامته من نظرات الآخرين رجعت دلال إلى منزلها وكلها أمل أن تسمع خبراً جميلاً يتضمن إلغاء السيد أحمد لهاته الخطوة التي آلمتها كثيراً... وجدت السيد ناجي جالساً يحمل جريدته متصفحاً إياها في دقائق معدودات كما تتصفح الحياة جريدة الأيام في سنوات... صعدت مسرعة إلى غرفتها... أخذت حماماً...

غيرت ملابسها ثم عادت إليه... جلست في جواره تتجاذب وإياه أطراف الحديث منتظرة منه أن يبوح بأي معلومة جديدة تخص السيد أحمد... صمت هنيهة ثم استرسل يقول:

- ألم تقل لك أمك شيئاً عن الخطبة...؟
- لا... إنها نائمة... ولكن والدي أنت تعرف رأيي بهذا الموضوع... إن السيد أحمد رجل طيب... ولكن....

قاطعها قائلاً:

- أنا لا أتكلم عن السيد أحمد.
- إذن عمن تتحدث...؟؟
- عن الطيار الذي عدنا معه إلى الجزائر في سفرتنا الأخيرة إلى فرنسا.... هل تتذكرينه؟

جمدت دلال بمكانها كأنها لوحة مصممة كي تلازم الجدار باتفاقية التبعية التي ألزمت لوحاتنا بالرسوخ في ذهن جدار بريء من جمالها الخلاب....

عقد لسانها من وقع هذا الخبر على آذانها التي لا تحتمل أكثر من الكلمات التي تقال إلى طاولة الاجتماعات بشركات والدها... آذانها لم تعد أخيراً تنصت إلا لأحداث غريبة ومزعجة ومؤلمة...

استجمعت رفات الكلمات المتساقطة على أراضي مخيلتها المشتتة لتشكل بها جملة هزيلة كادت تسقط من رفوف لسانها وهي تقولها مرتجفة...

- .... و.... ولكن ما الذي تقوله يا أبي...؟

الذي سمعته دلال... سأصعد إلى غرفتي... أنا منهك وخائر القوى... بالمناسبة لقد اتصل بي عمك سمير يقول إن أوضاع نادية في تحسن... كان ناجي يتحدث إليها وهي تبتسم دون أن تدرك ما يقوله عن نادية لأن الكلام كله أصبح كصفر على يسار العدد... لا يعني شيئاً... لا يرمز إلى معنى أو يبوح بإضافة جديدة للأرقام التي تقف في جواره سوى أنه كان يؤازرها ويظللها من أمطار الرياضيات المتهاطلة على سمائها، كي يطفئ حرائقها التي نشبت بتلابيب عقلها وقلبها ودنياها التي لم تكن من قبل سوى عمر من الصفقات والأعمال التي لا تنتهي إلا بتجاعيد تغطي وجهها وتكتسح روحها وأخرى بأوراقها التي أطالت الجلوس تحت شمس القلم...

كتبت العديد من الصفحات بابتسامة قطفت من مزارع الدمع والوجع... وكانت وهي تكتب تتحاشى النقاط إرضاءً للفواصل التي لطالما أعطتها الدافع حتى تكمل وتواصل مسار القلم في إنتاج المزيد من الاحتضارات... احتضارات لم تكن مخصصة للموت وإنما لولادة أجمل الأشعار والأبيات والكلمات....

ساهم الوضع الصحي لنادية في إعطائها فرصة جديدة كي تعرف الحقيقة الكاملة عن لغز الساعة التي وجدتها تجول بحقيبة يدها محدثة بانزلاقها منها خراباً بأعصابها المرهفة...

ترقبت بزوغ أول خيط من أشعة الشمس كي تخيط به هذا الثوب الممزق للذاكرة بإبرة لم تكن بحوزة أحد سوى أمها سلمى

التي استيقظت فلمحتها تعد القهوة بنفسها... استغربت وجودها بالمطبخ فهي لا تعرف عن فنون الطبخ شيئاً سوى الأكل...

- صباح الخير.
- صباح الخير أمي...

عانقت دلال أمها وقبلتها على غير عادتها، ابتسمت سلمى قائلة:

- أريد أن أعرف عن سر هذا التغيير وكيف تمكنت من إعداد القهوة بنفسك...
- إنه شيء بسيط... اجلسي أريد أن أتحدث إليك.
- حسناً... تريدين معرفة ما وقع البارحة مع الطيار...؟

ارتبكت دلال قليلاً ثم أردفت قائلة:

- نعم...
- لقد أخبر والدك أنه التقاك بالمطار... وأنه ينوي الزواج بك.

كم كان قريباً هذا الذي ظنته بعيداً ومبهماً... اعتقدته طياراً مميزاً يروي تاريخ الخوف والفوبيا من الطائرة في لحظات ويكتب لها معادلة معقدة بمجهول واحد هو الساعة وهي التي لم تكن تتقن حل المسائل في الابتدائية ولا تؤمن بالمعطيات الكثيرة التي تنتهي بنتيجة واحدة لا أكثر... كيف عرف اسمها وعنوان بيتها... هذا كان بالنسبة إليها لغزاً آخر محيراً...؟

بقطعة حلوى صغيرة تناولتها على عجل كما لو أنها كانت

حبة دواء مرّ يصعب بلعه وتجرّع مرارة مذاقه، استرسلت تربط بين قاطرات الكلمات كي تصنع منها قطاراً مفيداً لنقل استفهاماتها التي بلّلها الانتظار بأمطاره...

- ...... وما كان ردّ أبي إزاء هاته الخطبة؟
- تعرفين موقف والدك من الأشخاص الطامعين في ثروته...
- ... وإذن....
- إذن... لقد رفضه...
- ولكن لماذا لم يستشرني في الموضوع...

قطعت دلال عصراً من الأحزان في لحظة بكاء متمردة... منددة بحرية التعبير كصحفية مناضلة أو رئيسة حزب معارضة لا تود من الحياة شيئاً سوى أن تبدي رأيها وتطالب باحترام الاختلاف في وجهات النظر... الأسوأ هو أن كل الآمال التي باتت تخطها بأنين القلم استحالت بالونة منفوخة بالأوهام وبالأحلام النائمة التي تأبى أن تستيقظ في حضرة والدها المتيم بكرسي السلطة في دولة تعتبر الحرية غلطة... والانتفاضة ورطة... وكل من يمارس معه سياسة الصمت يقمعه بقنابل مسيلة للصمت...

من يستطيع أن يضع أحاسيسه تحت الإقامة الجبرية ليس بإمكانه أن يبتسم لمشاعر الآخرين إلا وهي بالمنفى... بمعزل عن نياته المجترة للمصالح الشخصية التي لا تقف فقط عند ظلمه واستبداده وإنما تحرمه من أن يشتري نفسه بكل ثرواته وممتلكاته...

أجهضت دلال كل أفراحها بالقرارات المتعسفة لوالدها ولم يعد لها أمل في معرفة ما يخبئه الصندوق الأسود بطائرتها المحطمة التي سقطت حتى قبل أن تقلع... من كان السبب... وكيف... ولماذا... كلها أسئلة كانت تضرم ناراً بعقلها وروحها وتنتزع منها حبات اللؤلؤ التي كانت معلقة بقلادة عمرها... وتكسر بداخلها تلك الأنثى التي تحلم بأن تكون أماً ويكون لها عائلة وأولاد...

عناوين الصبر برواياتها أصبحت قليلة وأزهار الثروة لم تعد تلائم مزهرية مبادئها وأحاسيسها المهمشة المسجونة بزنزانة السلطة والنفوذ...

قطعت مسافة طويلة كي تكون دمية الماريونات وها هي الآن تدرك أنه لا يمكن للإنسان بتاتاً أن يصبح لعبة... لا يمكن أن يفكر بعقول الآخرين وينظر بعيونهم أو يتكلم بأصواتهم ويكون نسخة طبق الأصل عنهم مهما حاول تقليدهم أو التأقلم مع هيمنتهم برضوخه واستسلامه لمآربهم سواء كانت حسنة أو سيئة... وهي تستقل سيارتها الفخمة لتتجه إلى مصنع جديد كان والدها قد أنشأه حديثاً إذ بها ترى سائقها كمال الذي لم يعد يرتاد المنزل كالسابق بسبب صحته المتدهورة يحمل بيده ورقة... توقفت عنده سائلة إياه عنها...

- صباح الخير كمال...
- صباح الخير سيدتي... هاته الورقة تركها لك رجل قدم إلى المنزل البارحة.

أخذت منه الورقة وبدأت تقرأها بصوت خافت «لربما أنا قائد طائرة سيئ... لكنني قائد جيد لمشاعري لأنني لم أرغب في خطبتك إلا من والدك الذي رفضني...»

«تمنياتي لك بالحياة السعيدة»

– وحيد –

أثارت رسالته ضجة بساحات حريتها المتورمة بكدمات الأحزان... وموت كواكب الحب من مجرات حياتها الغارقة بين المبادئ والمصالح...

هل كانت دلال لتتعثر بكلمات الأسف الواقفة برصيف رسالته أم أنها ستصمد وتواصل المسير وتعتبره صفقة فاشلة وقعها والدها قبل طلوع الفجر...؟

حاولت دلال أن توقف نزف الدمع من جروح عينيها وتوقف شلال الإحساس المتدفق بشرايين روحها... لكنها كانت ضعيفة جداً... غريبة في وطن لا يحتمل حزن الغرباء... وطن كان متعباً أكثر منها... وهي جالسة تحتسي شراباً ساخناً كغضبها، اتصل بها والدها ليخبرها أنه اتفق مع السيد أحمد على موعد الزواج... لقد كان قراراً... حكماً إجبارياً كالذي يلقى في المحكمة على المتهمين في الجرائم التي ارتكبوها ضد الإنسانية... لم يكن بيدها حل آخر سوى القبول لنزوات والدها المادية والجلوس فترة أطول تحت مظلة دكتاتوريته العمياء... لقد كان السيد أحمد رجلاً محنكاً مرناً وسلساً في علاقاته العملية والاجتماعية على السواء... هذا ما

جعله يتصل بدلال لا ليخبرها أنه سيلغي الخطبة ولكن ليعرف ما مدى تجاوبها مع فكرة زواجها به... كم كان مباغتاً وحتى أكثر من الحياة نفسها وهو يرمي بطعم حنانه كي يصطاد أسماك قبولها أو حيتان رفضها.

بين أسوار قلعة الظلم والعدوان أضحت دلال أسيرة لأقدار لم يكتبها قلمها ولم تحتضنها أوراقها وإنما احترف والدها تثبيت حروفها على كلمات بريئة من أنانيته واستبداده... لم يكن لها حل آخر سوى أن تعيد الاتصال بالسيد أحمد وتناقشه في الموضوع... كانت يومذاك تقف بالقرب من نافذة مكتبها الفخم تتأمل تهاطل الأمطار بكثافة شديدة على الفناء الخارجي للشركة والذي كان أشبه بمعرض لبيع الأزهار لشدة اكتظاظه بأنواع مختلفة من الورود البيضاء والحمراء والصفراء على اختلاف ألوانها وأشكالها إلى أن لمحت صدفة شخصاً يدخل بسيارة رباعية الدفع... سوداء اللون من نوع مرسيدس مرفقاً بسيارتين... نزل من سيارته فأسرع أحدهم إليه ليظلله بمظلته خوفاً عليه من أن يتبلل بالأمطار... فإذ ا به يأخذ المظلة منه ويرقص كطفل صغير تحت المطر... مظهر استطاع أن يخرج ابتساماتها من وكرها الحديدي ويطلق سراحها في لحظات...

كم هو جميل أن نظل صغاراً... ونلعب مع حبات المطر حتى وقد قاربنا سن الشيخوخة وسقطت كل أوراق حياتنا في خريف مبكر...

ظلت تراقبه... تتبعه بعيونها المرهقة من فوضى البكاء... وظل هو يرقص بمظلته تحت الشتاء غير آبه لكل من حوله، وهو يدخل الشركة اختفى عن ناظرها مخلفاً رقصته تكمل مشوارها بمخيلتها...

استدارت كي تجلس وتجري مكالمة هاتفية مع السيد أحمد... ظل هاتفه يرن وهو لا يرد إلى أن أجابها:

كانت ستشتمه أو تقول بدل صباح الخير... صباح الشر... شعرت كما لو أنها تريد أن تضربه بشيء ما بأي شيء يصادفها... دفاترها... أقلامها... حقيبة يدها... كادت تجن منه... إلا أنها تماسكت وقالت له:

- ألا تخجل من نفسك... تكذب علي وتقول إنك ستلغي الخطبة ثم تعود لتستأنفها... هي ليست صفقة يا سيد أحمد... إنها قضية عمر... قاطعها قائلاً:
- أنت لا تعرفين عن العمر شيئاً سوى الغوص في بحر الأعمال التي فرضها عليك صديقي ناجي... لا تدركين كم هو صعب أن يفصل بين العمر والعمر باب... وبضع خطوات... و... أكمل مكالمته بفتح باب مكتبها حاملاً مظلة ووردة بيضاء... لم تصدق دلال ما تراه بعينيها... لقد كان هو الراقص الجميل الذي يحترف الانسجام ووقع حبات المطر... كان هو من أفرغ كل رصاصات قلبها بطلقة واحدة... كانت رقصة تحت المطر...

ودون أدنى شعور وجدت نفسها تبتسم له وتضحك من ملابسه المبللة... وشعره الذي لم يعد أبيض بعدما صبغه بالأسود... دعته للجلوس قائلة:

- لنضع كل المواضيع جانباً... ولتحكِ لي عنك وعن المطر....

فرد بابتسامة مباغتة:

- إن حبات المطر حبيباتي... هذا إن كنت لا تمانعين.

سكتت ثم استرسلت تقول:

- وما الذي يربطني بك حتى أغار عليك...؟
- أنت زوجتي رغماً عن كل الذين يرفضون ويحتجون ويودون تحطيم علاقة جميلة كعلاقتنا...
- هل أنت مجنون...؟
- بكِ نعم... أما عن الآخرين... فأنا أعرف تماماً من أكون...
- جميل... ما دمت تتحدث عن كينونة الأشياء فسأقول لك من أنا ومن أنت ومن تكون...
- أنا فتاة تريد أن تعيش لا أن تموت قبل الوقت وأنت رجل ثري جداً تستطيع أن تتزوج بامرأة تناسبك سناً وحتى ثراءً... لذلك فالأحسن لك أن تنساني وتمحوني من قرص ذاكرتك...

صمت قليلاً ثم أردف قائلاً:

- المشكلة هي أنك لست بقرص الذاكرة... أنت هي الذاكرة في ذاتها فهل يستطيع المرء أن يعيش بدونها... لقد كان مضارباً جيداً في بورصة الكلام ولم تستطع دلال أن تنافسه وتفوز عليه بكل ما كانت تملكه من حقائب للكلمات والأشعار... سادت لحظة صامتة بينهما كسرتها بسؤال:
- هل أنت شاعر...؟
- أبداً... لكن من أجلك سأصبح أكبر الشعراء في العالم... وحتى أكبر من محمود درويش...

ابتسمت في وجهه قائلة:

- لكنك مهما فعلت فلن تحنّ إلى خبز أمّك... هل تعلم لماذا؟
- لأنك مهما حاولت ومهما دفعت من أموال فلن تستطيع أن تشتري قطعة من الإحساس الذي كان يمتلكه سيد الشعراء...

الفرق بينك وبينه هو أنه كان يموت من أجل بناء وطنه وأنت تعيش على أنقاض حطامه... الفرق هو أنه عندما كتب... كتب من أجل قضية عظمى... من أجل الحرية ورفض الاستبداد والاستعباد والاستعمار وأنت اليوم تريد أن تكتب من أجل امرأة خطرت على بالك... مرت بطرقات ذهنك وأنت جالس تدخن آمالها بسيجارة غرورك وكبريائك... لا يا سيدي... لست صفقة من صفقاتك ولا حبة مطر من شتائك... كثيرة هي الملاعب التي ستحب

وتحتضن أهدافك... أما عني وعن ملعبي فأنت لا تجيد رياضة الركض فيه لأن أرضيته ليست معبّدة بالشكل الذي يلائم المبلغ الباهظ الذي دفعته مقابل حذائك... ظل السيد يستمع إليها بتأن وسعة خاطر يشيد له بالفكر الرزين والحنكة التي أوصلته لما هو عليه...

ابتسم قائلاً:

- الأيام وحدها فقط من يستطيع أن يقرر إذا ما كان ملعبك يناسبني أم لا...

حمل الوردة البيضاء برفق وقدمها لها قائلاً:

- إنها وردة للسلام لا للحرب... وردة هي عربون محبة مني إليك...

أعجبت دلال كثيراً بطريقة إعطائه لها الوردة... كان يحملها بشكل أفقي غير المتعارف عليه في حمل الأزهار... شكرته مصطنعة الجدية والحزم... منبهة إياه بعدم نسيان مظلته السوداء... أخذها بين يديه قائلاً:

- أنا لا أخاف من المطر... بل من الرعد الذي يسبقه.

خرج مخلفاً وراءه امرأة تقف في المنتصف وتلوح بيدها لامرأة أخرى هي نفسها لتوقظها من غيبوبتها الموقتة... من حلمها الحقيقي الذي تمنت لو لم يكن واقعاً... رجل يفاجئها بحنانه وهي التي عاشت طوال عمرها تحارب أحاسيسها وتنفي مشاعرها من مدن الوجدان... وهي تفكر وتخمن وتسهو أحياناً، اتصلت فريدة زوجة عمها سمير...

- نعم... خالتي فريدة... كيف حال نادية...؟
- ... سأزورها مساء بعد أن أنهي أشغالي...
- ما بك دلال... لماذا صوتك مرتبك...؟
- لا شيء...
- كيف حالك دلال... هل أنت بخير...؟
- الحمد لله... وكيف حال عمي سمير... مرت مدة طويلة على زيارته لنا بالشركة...
- لقد اتصلت بك لأطلب منك خدمة صغيرة... هذا إذا كان طلبي لا يزعجك.
- لا أبداً... أنت غالية على قلبي خالتي فريدة... ابنتي جازية ستتأخر عن القدوم إلى المنزل بساعة ولا يمكنني الذهاب إليها... فهلا ذهبت لإحضارها... سكتت ثم استأنفت قولها:
- آه... نسيت أن أخبرك بمكان المدرسة الخاصة التي تدرس بها...
- أعرفها... هي ليست بالبعيدة من هنا... لا تقلقي سأحضرها بعد خروجي من الشركة مباشرة...
- حسناً... أتمنى لو أنك تصلين قبل الساعة السادسة...
- بالطبع خالتي... إلى اللقاء...

أنهت دلال كل ما بحوزتها من ملفات وارتدت معطفها

الأسود... حملت حقيبة يدها وبعضاً من الكلمات التي قالها السيد أحمد بقيت بطبلة أذنها تتدفأ من صقيع الحياة التي لم تعهدها.

وهي تخرج من الشركة كانت تتحسس نبض الأرض التي تمشي عليها... علّها تجد بين طيّاتها المعبدة رقصة واحدة ما زالت تتابع أغنية المطر... ابتسمت وهي تقول في نفسها:

- يا له من رجل مجنون.

ركبت سيارتها واتجهت مباشرة إلى مدرسة جازية أخت نادية.. وقفت في الفناء الخارجي للساحة متأملة اصطفاف التلاميذ لإنزال العلم لأنه آخر يوم في الأسبوع... ودونما أدنى شعور وجدت نفسها تذرف دموعاً كثيرة متمردة على الكحل الذي كان بدوره مصطفاً أمام مقلتيها... استيقظت متأخرة على أزمات وطن... وكيان وهوية فوجدت روحها تبكي حباً وغيرة على بلدها وعلى العلم... رأت تلامذة يتشاركون في إنزاله... لربما كانوا أنفسهم الذين تعاونوا على رفعه سابقاً إلى أعلى السارية... لم تكن تدري بحجم الخطأ المرتكب على مرأى من عيونها لكنها كانت متيقنة أنهم ليسوا على صواب لأن العلم الجزائري لا ينزل أبداً هو دائماً مجند ومجهز للصعود إلى القمة....

كيف نستطيع أن نمحو من ذاكرة أطفالنا شكله وهو ينحدر نحو الأسفل... إلى متى نعجز عن إشعال فتيل حبهم للوطن عند سماع النشيد الوطني وترويض آذانهم على عشق كلماته وألحانه المعلقة بقلادة أحزانه... أم أننا سنظل إلى الأبد نربي أبناءنا على

الانتقاد والتعنيف والرفض والإجبار على التزام الصمت وهم الذين تعلموا الكلام حتى قبل وقوفهم...

يقول الفيلسوف اليوناني سقراط «تكلم كي أراك».

ويقول الكاتب والفيلسوف اللبناني جبران خليل جبران «ليس حقيقة الإنسان بما يظهره لك بل بما لا يستطيع أن يظهره لذلك إذا أردت أن تعرفه لا تصغي إلى ما يقول بل إلى ما لا يقول».

هما رأيان مختلفان حرفياً... متكاملان نسبياً لمعرفة حقيقة المرء ومكنوناته وكلاهما خطأ يقبل الصواب أو صواب يحتمل الخطأ.

لكن الحياة تجعلنا نفهم في الأخير أن الإنسان يظهر الكثير من خباياه الداخلية أثناء تعامله مع أضعف فئات المجتمع فالشخص الذي يحترم الطفل ويقدره ويحسن إليه ويبكي لبكائه هو بالضرورة إنسان طيب لا محالة... هذا ما جعل دلال تحتضن جازية بطريقة غريبة وتقبّلها مرات عديدة... وتعشق ذاك الطفل الصغير الذي يسكن بأعماق السيد أحمد رغم أنها لا تستلطفه... ابتسمت جازية صاحبة الثمانية أعوام قائلة لدلال:

- لقد اشتقت إليك... أنتِ لا تأتين لزيارتنا.
- تعرفين أنني دائماً منشغلة.
- ولكنني أحبك أكثر من شغلك.

احتارت دلال لهاته الفتاة الصغيرة التي تتحدث عن الحب ببضع كلمات.

- وهل العمل يحب...؟
- نعم...
- حسناً... سأوصلك إلى المنزل وسأذهب لأزور نادية...
- هل ستموت أختي نادية...؟
- لا... من قال هذا لك...؟
- أمي... سمعتها يوم الحادث تصرخ وتقول ستموت ابنتي.
- لا تقلقي... ستتحسن وستعود كما كانت أو أحسن...

وهي تلج منزل عمها سمير إذ بها تصادف عند المدخل سيارة تخرج... لمحت بداخلها أحداً كأنها تعرفه... لا بل كان هو إنه الطيار بعينه لا أحد غيره... عجز فمها عن الكلام.... ظلت مشدوهة... مستغربة سبب وجوده ببيت عمها سمير... لم تصدق ما رأته... كادت أفكارها تنتحر من شرفات حيرتها وسخطها على الأيام التي لم تعد بالوضوح والنزاهة التي كانت عليها... أحست بهبوط مفاجئ في ضغط الدم ودوار شديد وهي تركن السيارة في فناء المنزل الفاخر لعمها... تركت جازية تدخل وببعض ما تبقى بعقلها اتجهت نحو المشفى لتعود نادية... لم تصدق أنها ستراه هناك ثانية... كاد يغمى عليها... وهو يلمحها طأطأ رأسها وأنزل القبعة مخفياً بذلك نصف وجهه... أسرع في الخروج... لحقته لتتيقن أنه هو لكنه اختفى في الزحام... ولأن الأمطار كانت تتهاطل بقوة

والضباب يعم المكان فقدت أثره... لكن إحساسها كان يقول لها إنه هو... لم تفهم شيئاً... كانت أشبه بتلميذة غبية تواجه ورقة الامتحان بإذعانها لحمل القلم وكتابة الجواب... استوقفها الطبيب عند باب غرفتها وهو يقول:

- هل أنت قريبتها...؟
- نعم.
- إنها اليوم أحسن حالاً من الأيام الماضية... وقفت أمام سريرها وهي تبتسم لرؤيتها تحرك عينيها ويديها وتبدي تحسناً صحياً ملحوظاً... وبينما هي تنظر إلى نادية شاخصة... تذكرت الساعة والطيار والسيد أحمد وكل ما تفعله بها الأقدار... اكتشفت من جديد أن تلك الأنثى ما زالت تبكي بداخلها ولا يزال صوت نحيبها يقهر أسوار الآذان ويخترق الأسماع ويحرق القلوب... لم تكن تعرف قبلاً أنها عبر كل مرحلة من مراحل العمر تصادف حزناً جديداً ببطاقة هوية فريدة في نوعها متمردة بوقعها.... ولحنها ليس سوى سمفونية مخصصة لأيام الحداد... قبل كل الذين أساؤوا إليها لم تكن موجودة... كان الجرح بداخلها بركاناً خامداً هادئاً مستمتعاً بالمناظر الطبيعية من حوله... ولم تكن هي سوى تلك الطبيعة الصماء المرسومة على لوحة قدّر عليها أن تظل تبكي بصمت لمدة أطول مما توقعتها...

هناك أشياء بداخلنا لا تكسر مرتين لأنها من زجاج... من ورق... من ضباب متعثر بآهات السحاب... وعندما تقرر أن تفعل شيئاً كي تنتفض لا تجد شيئاً أقوى من القلم... ومن الكلمات... لا تجد يداً بأصبع واحدة أجمل منه كي تقتل المعاناة ونصبح أشخاصاً آخرين كنا فيما مضى نشبههم إلى حد بعيد... كيف تناسينا أن القلوب تسمع وترى وتحس وتبكي بدموع لا نراها إلا بين فتات حطامنا الذي تبقى من أرضنا ونحن نعاود الوقوف من جديد كطفل ظل يمارس هواية المشي وقتاً طويلاً وعندما أتقنها أصبح يحن إلى الجلوس لأنه أدرك أن رواية المشي في زماننا أكبر بكثير من أن يقرأها الأبرياء... وهي تتأمل وجه نادية مرت كل الحلقات المثيرة من مسلسل حياتها بسرعة كالبرق على محطات ذاكرتها المتمردة على النسيان المتشبثة أكثر فأكثر بكل من يسكنها من أحداث وأشخاص سواء كانوا طيبين أو سيئين... وجدت نفسها ترتدي ملابس من خزانة الماضي وهي التي لطالما أشادت بآخر صيحات الموضة... اكتشفت لوهلة أنها تجوب الحياة كذرة أوكسجين مصيرها الاحتراق في الخلايا... تأكسدت عواطفها وشعرت أنها ستهوي أرضاً... حملت نفسها كي تغادر الغرفة ظناً منها أن رائحة الأدوية وأنين المرضى من حولها تسبّب لها ذلك... فتحت الباب وسارت خطوتين في الرواق... إذ بها تحس بدوار شديد تمسكت بالجدار لكنه كان أجبن بكثير من أن يساند امرأة لجأت إليه في عز هوانها وضعفها... التف الأشخاص حولها

ونقلت بسرعة لمعاينتها... أجروا لها تحاليل دقيقة فلم يكن هناك ما يقلق سوى ضغط دمها الذي قارب الثمانية عشر... استفاقت على صوت طبيب يقول لها:

- أنت بخير لا تخافي...

لم تفهم شيئاً سوى أنها كانت بغرفة نادية ثم أصبحت وحدها في غرفة أخرى... سردت عليها الممرضة القصة ونصحتها بالتزام قياس ضغطها ثلاث مرات في اليوم... بكت كطفل صغير وهي تشاهد انكساراتها بأعينها دون استطاعتها فعل شيء سوى الاستسلام لبنود معاهدة وقعتها مرغمة... كانت للحياة...

وهي تهم بالخروج من المشفى استوقفها مشهد بعض الأناس يقتنون أزهاراً ليعودوا مرضاهم... كم كان مظهرهم جميلاً وهم يواجهون الأمراض بالأزهار ويبتسمون رغم ما ينتظرهم من أنين وعويل ودعوات لا تنتهي بالشفاء... اعتقلها الأمل بغتة وهي تهرب من يأس أتقن الحرية حتى اعتقد أنها ديانته فابتسمت من جديد وانطلقت كالبرق بسيارتها مخلفة وراءها امرأة خدعت لأنها استوعبت درس القبول جيداً وأخفقت في مادة الرفض بامتياز... فتاة ككل امرأة جزائرية تعلمت أشياء خاطئة عن الطاعة والعصيان... عن الحب وعن الكره والحرمان... عن سجينة زينوا لها سجنها بالورود وأقنعوها أنها ستعيش سعيدة في كنف السجان... وأورثوها مفاهيمهم الشعبية البعيدة كل البعد عن الأحاديث النبوية... وعن القرآن... دخلت منزلها وفمها معبأ

بالكلمات المنافية والمعادية لجملهم المرصعة بالمصالح والمريضة بفيروسات الثروة والسلطة وأشياء أخرى حطمت بداخلهم ذاك الإنسان... فتحت غرفة والدتها لتبوح لها بما يجول بخاطرها ويعذبها أكثر فأكثر طمعاً في حفنة صغيرة من المشاعر هي في أمس الحاجة إليها... أشعلت الضوء وإذ بأمها تصرخ في وجهها...

- أطفئي الضوء ولا تشعليه.
- ماذا يا أمي...؟ هل هي نوبة الشقيقة مجدداً..؟
- نعم... أرجوك دلال... اتركيني وحدي...

كان المرض شائعاً ومعروفاً لكنه متعب ومرهق إلى أقصى الحدود يجعل المصاب به يفضل الوجود وحده في غرفة مظلمة مطفأة الأنوار بسبب صداع شديد على مستوى جهة واحدة من الرأس... غيرت دلال ملابسها ودخلت المطبخ تبحث عن شيء ساخن تشربه... أعدت لها الخادمة شاياً بالنعناع وقدمته لها قائلة:

- هل أنت مريضة سيدتي... إن وجهك شاحب.
- نعم أنا مريضة... هل لديك سؤال آخر...؟
- لا أبداً... تصبحين على خير...

كانت دلال تعترض دائماً على فكرة وجود الخدم في المنازل ولا تؤمن بها سوى في الروايات كرواية «السيد والخادم» للكاتب الروسي «ليو تولستوي» لأنها تعتبر خدمة الآخرين إهانة كبيرة لسيادة الإنسان ووجهاً آخر للعبودية... كان من الأجدر أن تتحرر منها الشعوب المتحضرة... انصرفت بدورها لتجلس لحظات في البهو

وحيدة وسط ثراء لم تكن تملك منه شيئاً سوى تعوده ومجاراة امتداده إلى قريتها الصغيرة التي تكتفي بقطعة خبز محمصة على نار الإحساس وكوب لبن من الحنان والصدق والإخلاص... رماها الحاسدون بحجارة الغيرة وهي التي طالما آثرت الحرية على الثروة والكرامة على الجاه والمشاعر على السلطة... سمعت باب المنزل يفتح فاستغربت من هذا الذي يأتي في الساعة الحادية عشرة ليلاً... لقد كان والدها... جاء متأخراً... متعثراً بأعماله التي لا تنتهي... وقبل أن تقول شيئاً بدأ بخطابه المعهود:

- لقد خرجت باكراً اليوم وتركتني أجتمع مع الشركاء وحدي.
- لا أبداً... لقد أوصلت جازية إلى....

قاطعها بتهكم شديد:

- لا يهمني ماذا تفعلين... أخبريني لماذا هاتفك النقال مغلق... لقد اتصلت بك مراراً وتكراراً...
- لم أنتبه له... لقد ذهبت لزيارة نادية وتركته بالسيارة... لم يكن مغلقاً.
- حسناً... لا أريد تصرفات كهذه بعد اليوم...

لقد كان والد دلال رجلاً مهووساً بالأعمال... وبالأموال وبأشياء ظنها تخدمه فأضحى خادماً لها... اعتقد أنه ثري... متناسياً أو متجاهلاً أن الثراء الحقيقي هو أن تعطي مما لديك... وتحترم الآخرين وتقدر مشاعرهم وتقف معهم في محنهم ومصائبهم...

اعتقد أنه أسد... ونسي أن الأسد يموت بلدغة ثعبان...لأن القوة وحدها لا تكفي كي تعيش... يلزمها الكثير من الذكاء كي تغامر وتكافح من أجل البقاء... أكملت دلال فنجان الشاي الذي كان بين يديها وأسرعت إلى غرفتها كي تحتضن القلم علها تفقع بالونة أحزانها بإبرة كلماته الشاحبة.

جلست وراء مكتبها وبدأت تخط بعضاً من أحاسيسها الغاضبة في هدوء صاخب... ساخط على الحياة... رمت بكل الحروف على أرضية أوراقها البيضاء كي تعيش بكرامة فترة أطول... وتتحرر من سجن شفاهها البكماء... وكما تؤمم الدول مواردها الطبيعية غدت دلال تسعى لتأميم مشاعرها الداخلية كي تحميها من النهب والاستغلال والاستعمار المقنع الذي ظل دائماً يوهمها أن المرأة تستطيع أن تعيش بدون حب... لم تكن تجربة بالدليل أو كذبة أفريل... لقد كانت نظرية «مصالحك قبل مبادئك» التي ظل والدها يمليها عليها منذ نعومة أظفارها...

بدأت ثورتها الكلامية ببضع عبارات تشبه الكلام في أسلوبه وصياغته وأنهتها بقصيدة طويلة عن الحياة... وعن المعاناة... وعن فتاة تتوق إلى الاستقلال والحرية الحقيقية... تساءلت يومذاك لماذا يخاف بعضهم منا من المطر وبعضهم يرقص تحته؟... لماذا يحلم الفقير بكيس من النقود فيما يعيش الغني فقيراً بسبب جهله...؟

اختزلت أسئلتها في دمعة صامتة هاربة من بلد العيون لاجئة إلى وطن ضاقت عليه طرقاته وضاعت منه المناديل في صفقة من

صفقاته... كانت الحياة بالنسبة إليها سابقاً أكثر جاذبية من جاذبية نيوتن لكنها أصبحت أكثر شبهة ونسبية من نسبية أينشتاين نفسه... ارتحلت نجوم الليل محققة بأفولها انتصاراً جديداً لشمس النهار... عقبته أخبار سارة عن نادية...

استيقظت فوجدت أمها تهيئ نفسها للذهاب بعدما غادرها الصداع وأصبحت أحسن حالاً سألتها قائلة:

- إلى أين يا أمي؟

- سأذهب إلى بيت عمك سمير لأرى نادية...

- وهل أخرجوها من المشفى...؟

- نعم هذا ما قالته لي خالتك فريدة ليلة البارحة...

قفزت دلال من الفرحة وقررت أن تذهب معها... كان الكل سعيداً يومذاك بعودة نادية إلى المنزل وتمكنها من الكلام قليلاً... والحركة نسبياً... وهي تتبادل أطراف الحديث مع أمها وخالتها فريدة عن أوضاع نادية... دخل عمها سمير مبتسماً... التفتت دلال كي تسلم عليه وتسأل عن أحواله بدورها إذ بها تلاحظ في معصمه ساعة يد تعرفها... لقد كانت الساعة هي لا غيرها... لكن كيف وصلت إلى يده... كادت تجن... لاحظ سمير ارتباكها واحمرار وجنتيها... كان سيسألها إذ بها تسبقه بسؤال مباغت:

- ساعتك جميلة عمي سمير... من أين اشتريتها لأني أود اقتناء واحدة مثلها لأبي في عيد ميلاده...؟؟

- لقد أهداها إليّ رجل أعمال كبير... أظن أنك تعرفينه... لأنه وقع مع شركتكم عقداً الشهر الماضي...
- ما اسمه؟
- السيد أحمد.

انحدرت عواطف دلال في شلال الحيرة وهوت دون رجعة إلى المنبع... كادت تفارق الحياة لوقع الصدمة عليها... لقد كانت الساعة للطيار ثم صارت بحقيبة نادية وها هي الآن تسقط أسيرة معصم عمها سمير بعد أن أهداها إليه السيد أحمد...

هل كانت الحياة يومذاك مبارزة جيدة أم أنها دلال لم تكن تعرف عن فنون القتال شيئاً...؟ ظنت أن الفرح يسير بخطى ثابتة إليها حين سمعت بعودة نادية إلى المنزل ولكن عبث الأقدار لم يكن حكراً لرواية نجيب محفوظ وإنما أصبح الرواية الأكثر تداولاً بين كتبها آنذاك...

احتفظت بعقلها في غرفة لحفظ الجثث بمشفى الحياة وركنت قلبها بموقف لم يكن مخصصاً للسيارات وإنما للاحتضارات والانكسارات... شعرت برغبة جامحة في الهروب من أي شيء... ونحو أي اتجاه... كانت تعرف أن المباغتة هي الورقة الرابحة في لعبة الحياة لكنها لم تدرك خطورتها إلا بعد انهيارها ودمارها... مر التاريخ بجانبها يضحك... يهزأ منها ومن شعرها الأحمر الذي يرمز إلى التمرد وإلى التجدد.

كسمكة قرش في عرض المحيط لا شيء يقهرها سوى صياد ماهر مؤمن بأنه أقوى من الطبيعة نفسها... وجدت نفسها سائحة في مدن الأشجان تروي قصة عن الغروب لا أحد يعرف عنها شيئاً سوى قلمها الذي أفحمته شمس الألم... لا أبداً لم تكن بحراً ولم تكن الصياد... لقد كانت ذاك الصراع الأبدي الذي لا ينتهي إلا بزوال الإنسانية وتلاشي الحضارات التي صنعتها... ثم ضيعتها... كانت رصاصة طائشة صوبتها نحوها بندقية القدر ولم تفلتها لأنها لم تكن أسداً بل غزالاً صغيراً ضعيف البصر وهزيل البنية... لم يقرأ في مدرسة الحياة درساً واحداً عن الخطر..

احترقت أفكار دلال بنيران الحيرة وتكالبت عليها الأسئلة وظلت طريقها في نفق مظلم استنفد كل أنواره في صندوقها الأسود الذي ظل معانداً ومراوغاً حتى بعد تحطم طائرتها العاطفية... حملت نفسها وعادت مع أمها إلى المنزل... لم تنبس بحرف واحد... وهي في السيارة ظلت سلمى تتكلم وهي شاردة غائبة تبتسم من حين إلى آخر دون أن يكون لها علاقة وطيدة بينها وبين ابتساماتها... دلفت المنزل متعثرة باستفهاماتها... كانت الحيرة توشك أن تسقط من أرضية مخيلتها الهاربة من الحياة... وفي لحظات التقفتها سلمى تبكي كطفل رضيع عانقتها.... ودون أن تطرح عليها سؤالاً قالت لها:

- لا تخافي من الحياة يا دلال... ولا تقلقي ولا تحزني... أنت امرأة قوية... صمتت دلال ثم استجمعت حروفها وأجابتها بثقة كبيرة:

- ولكني لست أقوى من الحياة...
- أعلم أنك تحبين نادية كثيراً وأن الذي حدث معها آلمك لكنها إرادة الله وقدره...
- ولماذا أنت متيقنة أنني أبكي من أجلها...؟
- إذن... ماذا... ما الذي يحدث معك يا دلال؟
- لا شيء... سأذهب إلى العمل... كانت ستنصرف إلا أنها استدارت بغضب قائلة:
- أريد أن أطرح عليك سؤالاً يا أمي...؟
- نعم...؟
- لم يخطر قط وأن صادفتك تحملين كتاباً وتقرئين لماذا...؟
- ولكن دلال ما فائدة هذا السؤال...؟
- أجيبيني من فضلك؟
- لا أدري... لم أتعود...
- كان والدي سيكون أفضل حالاً مما هو عليه لو كان رجلاً مثقفاً مهتماً بالعلم والكتاب وأنت كذلك أمي... كذلك.

انخرطت دلال بالبكاء وخرجت تجري مخلفة وراءها سلمى تعتقد أن ابنتها على حافة صغيرة من الجنون... لم تكن دلال مجنونة أو خاطئة فالقراءة تغير من الإنسان... تجعل منه شخصاً أكبر وأرقى من أن يخدعه الآخرون أو يؤثر فيه العوام الذين هم أقل منه ثقافة ومعرفة... ما الذي يمنع إنساناً ثرياً من أن يحمل الكتاب بين يديه... أبداً ليست أعماله ولا أشغاله... إنه الجهل

فقط من يجعل من الأغنياء أشخاصاً أغبياء مرضى بفيروسات الثراء وأورام الجاهلية الأولى.... في الجاهلية كانت القبائل تعبد الأوثان وفي الوقت الراهن يعبد بعضنا من الحمقى أموالهم ناسين تماماً أن أعظم درس في الإسلام هو الأخلاق... يظل الإنسان المتخلف علمياً وحضارياً يقر بشرعية جهله كأنه قدر محتوم إلى الأبد ويبقى في مواجهة ضارية مع مشاكله بالأساليب والطرق المتبعة نفسها ظناً منه أنه على صواب... وعندما يكتشف أهمية الكتاب يدرك حينذاك كم كان ميتاً وهو يعيش...

لطالما شعرت دلال أنها في حاجة إلى تعاون أمها ومساندتها معنوياً وفكرياً... لكن الشعور وحده لا يكفي كي نحقق ما نريده ونسعى لتحقيقه... ولأنها تقبلت واحتضنت جهل أمها وقنعت به... ها هي اليوم تجد نفسها وحيدة تبحث عمن يدافع عن أحاسيسها ويرفض الصفقة التي وقعها والدها مع السيد أحمد في غيابها... لكنها لا تجدها... هل كانت دلال لترفض وتقول لا أم تستسلم وتقول نعم... وتدفن لا بقبو ذكرياتها الأليمة؟

دخلت الشركة بعد أن عدلت مكياجها في السيارة فهي لا تحب أن يرى الآخرون ضعفها... وهي تصعد الدرج لاحظت رجلاً يبدو عليه أنه من الأمن يخرج من مكتب والدها... وضعت حقيبتها بمكتبها واتجهت إليه لتعرف ما الذي يحدث...

- صباح الخير أبي...

- صباح الخير... يريدون إقحامي بمشاكل أنا بغنى عنها.
- من؟
- لا أدري... سأذهب إلى مركز الشرطة كي أعرف... عمك سامي مات والتهمة ما زالت تلاحقني...
- لماذا؟
- لأنه كان مقرباً مني... بالمناسبة سيأتي اليوم السيد أحمد ليوقع على آخر التفاصيل في صفقتنا معه وليتفق معك على مستلزمات الزفاف...
- ولكن لست موافقة...
- أنا لم أسألك إن كنت رافضة أو موافقة.

غادر تاركاً وراءه دلال تلتحف بصمتها الحزين من صقيع كلماته الباردة... القاسية... الخالية من الإحساس... لم تستطع أن تتصور نفسها عروساً لرجل يكبرها بـ ٣٥ عاماً لمجرد أنه ثري جداً... كان الأمر مهولاً ومروعاً بالنسبة إليها... هي التي أنشأت للوجدان إمبراطورية بأعماقها وكرمت كل جنود العاطفة بمعسكراتها... كيف لها أن تغامر بهذا الصنيع العظيم إرضاءً لرغبات والدها المالية وتكتب انتحاراً جديداً لإرادتها من أعلى هضبات القدر...؟

عادت إلى مكتبها وكل الأحلام تتلاشى أمام ناظرها المتعب من الأيام... وهي تدرس بعض الملفات العالقة وجدت السكرتير يقرع الباب ليعلمها بمجيء السيد أحمد... قالت له بخيبة ناضجة:

- دعه ينتظر في قاعة الاجتماعات.

دلفت القاعة بتجهم شديد... كان الحزن واضحاً على لمعة عيونها المنطفئة.

- أهلاً بالسيد أحمد...
- مرحباً... كيف حالك؟

كانت ستقول له إنها بخير لكن لسانها أبى أن يكون كاذباً سكتت ثم قالت:

- قبل أن نبدأ تفاصيل العقد... أريد أن أقول لك شيئاً مهماً عني لا تعرفه.
- لا أبداً... أعرف عنك كل شيء...
- أنت لا تعرف شيئاً سوى مصالحك... أنت كوالدي وجهان لعملة واحدة.
- أنت اليوم غاضبة يا دلال... وأنا أخاف من غضبك لأنك تصبحين أكثر جمالاً...

بتحدٍ شديد ولهجة واثقة أجابته:

- شكراً على المجاملة... المهم ما أريد قوله هو أنني موافقة على زواجي بك... لكن بشرط..
- كل شروطك مقبولة...
- أريدك أن تكتب كل أملاكك باسمي...
- غالي والطلب رخيص.
- استغربت دلال جوابه... كانت مراوغة جيدة... لكنه كان أكثر حنكة منها:

- هل أنت متيقن؟
- بالطبع إذا أردت نذهب الآن إلى الموثق وسأهب لك كل ما أملك...

وضع السيد أحمد دلال في حيرة جديدة وهي التي تحاول جاهدة الهروب من كل تساؤلاتها... قمع بداخلها ذلك الطيف الخافت لأمل ضائع بين أحضانها لأنها كانت تطمع في رفضه وإذعانه للفكرة... تساءلت يومذاك هل هو بالفعل قد أحبها وأن الحب بالنسبة إليه أغلى الأشياء وأثمنها؟

ارتبكت في حضرة سخائه العاطفي وودعت أمنيتها في التحرر من استعمار والدها... ظل السيد أحمد وقتاً طويلاً صامتاً ينظر إليها تارة وإلى الأوراق تارة... يريد منها إضافة جديدة لكنها غيرت الموضوع بانعطاف مباغت... فتحت الملفات وبدأت تقرأ... كان يبتسم طوال الوقت... تركها تنهي رواية الأعمال ثم استطرد قائلاً:

- والله إنني لم أحب أموالي وثروتي قط كما أحببتها الآن... فقط لأنها ستصبح بين يديك...

أشعرها كلامه بخجل شديد... احمرت وجنتاها وضاقت عليها الأنفاس... وقفت لتفتح النافذة... شعرت بدوار شديد فهوت أرضاً... لم يعرف السيد أحمد ماذا أصابها... هرع مسرعاً ليستدعي أحداً... نقلها إلى المشفى... وهي في الطريق استفاقت فوجدت نفسها معه بالسيارة ووجهه مبلل بدموع تشبه الشتاء... صرخت به قائلة:

- ما الذي تفعله...؟
- هل أنت بخير...؟
- نعم... ولكن لماذا أنا هنا...؟
- كنت سآخذك إلى المشفى... ونحن بصدد الحديث سقطت أرضاً...
- إنه ضغط الدم المضطرب الذي أعانيه أخيراً... لاحظت دموعاً غزيرة في عينيه... كانت ستسأله لماذا يبكي لكنها تراجعت عن الفكرة تفادياً لإحراجه... قرأ كل الكلام في جريدة عيونها الأكثر وضوحاً كقمر يتربع على صفحة السماء بضيائه...
- تريدين أن تعرفي لماذا أبكي...؟

لقد كان شجاعاً كفاية كي يتحدث عن دموعه أمام امرأة...

- حسناً... سأخبرك الحقيقة... لقد ماتت زوجتي بمرض أنهك جسدها وجعل منها امرأة هزيلة وتعيسة... لذلك فأنا لا أريد أن تموتي مثلها...
- هل لديك أولاد؟
- نعم... ولدان...
- خذني إلى المنزل من فضلك... أريد أن أستريح...

اتجه السيد أحمد مباشرة إلى منزلها... أدخلها برفق... سلم على والدتها وغادر.. أصيبت سلمى برعب وهي تشاهد الاصفرار على وجه ابنتها... أمسكتها قائلة:

- ما الذي حل بك دلال...؟... هل أنت بخير...؟
- نعم... فقط أصبت بدوار وأنا في اجتماع مع السيد أحمد سأصبح أحسن حالاً... لا تقلقي...
- اصعدي إلى غرفتك... وسأناديك حينما يجهز الفطور... لقد أعددت لك شوربة الفريك التي تحبينها... بقيت دلال مدة ثلاثة أيام لا تفارق غرفتها مدعية المرض والإرهاق... كانت تستغرق كل الوقت في التفكير والتمحيص في موضوع زواجها... المشكلة هي أنها لم تجد من تستشيره فيما يفيض به قلبها ويزيد من جرحها أكثر... لم تكن تملك سوى أن تكون وحيدة وسط ازدحام مخيلتها بالصور والذكريات والانكسارات... وهي جالسة بمكتب غرفتها اتصل بها السيد أحمد ليطمئن إلى أوضاعها... ردت عليه بأنها بخير... أخبرها بأن الموثق سيكون في المنزل بعد ساعة لإجراء نقل ملكيته إليها... ارتبكت ثم قالت:
- لا تفعل هذا اليوم... لنؤجل الموضوع... هل تستطيع أن تمر علي اليوم عند الساعة الخامسة... أحتاج إليك...

طار السيد أحمد من الفرح ورد عليها بالموافقة، مر من الوقت ٤ ساعات... استطاعت دلال خلالها أن تهيّئ نفسها وترمم بعضاً من جراحها بعلبة مكياج واحدة كانت كفيلة كي تغطي آثار الدموع وندوب البكاء من على وجهها الشاحب، ارتدت معطفاً أحمر من

الفرو وانتعلت حذاءً أبيض لامعاً، أسدلت شعرها الأحمر بانسيابية لافتة... حملت حقيبتها ذات الطابع الكلاسيكي ونزلت إلى البهو فإذا بها ترى من النافذة أنه قد وصل... ركبت معه من جديد قائلة:

- أريد أن أذهب إلى المول للتبضع من أجل مستلزمات الزواج.
- ابتسم السيد أحمد... ابتسامة عريضة خلفت بمرورها على تقاسيم وجهه زلزالاً عنيفاً تساقطت باهتزازاته كل خلايا وجهه واعتزلت من جمهورية الملامح رد عليها قائلاً:
- حسناً سأشتري لك كل ما تودين شراءه بشرط قبولك دعوتي للعشاء في مطعم فاخر وهو يتحدث إليها كانت تقارن بينه وبين والدها الذي لم يكن يستشيرها في الأمور ويفرض سلطته على مشاعرها... اكتشفت أن الثراء وحده لا يكفي كي يصنع من الإنسان شخصاً قاسياً... يلزمه الكثير من الأمية والجهل والعربدة كي يكمل وظيفته في هدم الأحاسيس... استغربت نفسها وهي تجد مشاعرها تنام بدفء بين أضلع صدرها المتورم بآفات القهر والحرمان... وجدته رجلاً طيباً وهي التي كانت تبحث عن الطيبة بمجهر فراستها لسنوات لكنها لم تجدها... وهو يسوق السيارة برزانة وكبرياء ظلت تحدق إلى ملامحه... هيئته... صمته وكلامه... وابتساماته... سكتت قليلاً ثم قالت له:

- لماذا صبغت شعرك بالأسود... كان الأبيض لائقاً عليك أكثر...
- صبغته خوفاً من نفورك من مظهر الشيب فيه...
- لا يهم إذا كان شعرك شائباً... المهم هو أن تكون مشاعرك شابة، صمت قليلاً ثم قال:
- هل جربت كتابة قصيدة قبلاً...؟
- لماذا تسألني؟
- لأن بداخلك امرأة مرهفة وحساسة تنفع أن تكون شاعرة أو كاتبة مثلاً...
- لم أجد من يشجعني.
- الهواية مثل الحياة لا تحتاج لمن يشجعنا على حبها.
- هل تعرفها جيداً...؟
- من؟
- الحياة...؟
- سؤال صعب... لكنني سأحاول الإجابة عنه فأنا رجل من الممكن له أن ينهزم في المعركة لكنه لا يخسر الحرب، صمت هنيهة ثم استرسل يقول:
- بالرغم من أن الحياة لا تقال في بضعة أسطر وكلمات إلا أنني اكتشفت أننا نظل صغاراً في مدرستها نتعلم... ونخطئ ونصيب... ونسعد ونحزن ونحلم ونستفيق ونقف أحياناً ونسقط أحياناً أخرى كي نقف من جديد... ما

آلمني كثيراً هو أن الأشخاص الذين وثقت بهم خدعوني والذين أحببتهم غدروا بي والكل يستطيع أن يبيعك لأجل مصلحته... لا شيء يهم أكثر من إرضاء غروره وأنانيته... الحياة تضمر لنا الكثير من الأسرار والمفاجآت... وتجعلنا في حالة من الترقب الدائم لانقضاضاتها المباغتة... نطقت دلال بعد صمت غريب:

- هل تعلم أننا في زمن تراجعت فيه القيم ومسرحية الأخلاق أسدلت ستارها وشمس الحياة لم تعد تنير كما كانت سالفاً... عندما تطغى الماديات على الإنسان... فقد ضاع ومات الإنسان...
- وهل تعلمين أن أول الأشياء التي سأفعلها بعد الزواج هو مساعدتك على نشر كتاب يجب عليك ومن الآن الانطلاقة في كتابته...
- دمعت عينا دلال من الفرحة وقطفت كل أزهار الحديقة دفعة واحدة... كم أنت مباغتة أيتها الحياة... بين رجل أراد أن يقتلع مشاعرها من الجذور وآخر يزرع بذورها كي تنمو وتكبر، وجدت دلال نفسها في المنتصف وهي التي لطالما حاربت نظام المنتصفات وقاومت توغلها بين أشجار كيانها الصلب والقوي... اقتنعت بأن الحياة فعلاً لا تقاس بعدد السنين وإنما بكمية المشاعر الجميلة التي نحتفظ بها وسط دمار أخلاقي حاول جاهداً أن يمحو من

معالم شخصيتنا صفاء الروح ونقاءها وبراءة النفس التي فطرت عليها...

وهما في الطريق إلى المركز التجاري خطر على بالها أن تسأله عن علاقته بعمها سمير ومن ثم عن إهدائه الساعة له لكنها لم تكن الفرصة السانحة للنبش في هذا الموضوع معه...

فضلت التروي وانتظار الشفاء التام لنادية لربما ستفيدها ببعض المعلومات... وهو يركن السيارة في الموقف الخاص بالمركز سألها قائلاً:

- هل تريدين أن أرافقك أم أنتظرك هنا؟
- هل تمزح؟
- لا، أبداً.
- إذن... لماذا طلبت منك أن ترافقني... كنت لأتبضع وحدي.
- حسناً... أنا قادم.

كان أنيقاً وحضارياً أكثر مما توقعته ووسيماً رغماً عن تجاعيده... وجدته يمنحها فرصة الدخول إلى المحال قبله مشيراً بيده ويثني على ذوقها في انتقاء الألبسة والأحذية.

أنهت دلال كل مشترياتها وعادت إلى المنزل... شكرت السيد أحمد على لطافته ثم نادت الخادمة لتحمل الأغراض إلى الداخل، وقفت سلمى عند الباب مبتسمة والبهجة تعوم في بحر وجهها البريء... قالت لدلال:

- ما كل هذا... ولماذا يطغى اللون الوردي على حاجياتك.
- سأتزوج السيد أحمد يا أمي...
- ألم تكوني رافضة الزواج به؟
- إنه رجل طيب يا أمي... يقدر المرأة ويحترم مشاعرها... لقد أخطأت الظن به... هو أشبه بساحر.
- اغرورقت عينا سلمى لشدة فرحتها بزواج ابنتها عن رضى وقناعة...
- كنت متيقنة أنك حكيمة في قراراتك يا دلال.

لا أبداً... لم تكن دلال مقتنعة بل كانت تريد أن تهرب من الأسر الذي وضعها فيه والدها وتثبت له أنها ستوقع الصفقة بإرادتها لا رغماً عنها... ظلت تكذب على سلمى وتدعي القبول وتضع قراراتها الحقيقية على هامش أوراقها المزيفة وتلغي بذلك تلك المتمردة لتضع بدلها امرأة منهزمة وضعيفة تدعي القوة والشجاعة لكنها لا تملكها.

الحقيقة الكاملة هي أنها لم تكن تملك خياراً آخر سوى الخضوع والسير مدة أطول بين أروقة سجن والدها الذي تلاشت بين أحضانه كلمات الإحساس وانتهكت بين جدرانه حرية التفكير والتعبير وإثبات الذات... قرأت المستقبل بعينيه وتكلمت عن مصيرها بشفتيه... وكل هذا لماذا...؟

لأجل رجل أيقظ بداخلها تلك الأنثى النائمة على سرير

المشاعر محدثة بسباتها الطويل فجوة كبيرة بسماء الوجدان... كانت أكبر بكثير من ثقب الأوزون... اتخذت من الأسى صديقاً لها كي تعيش... ومن الأحزان حزباً قوياً في دولتها... كي تستمر وتواجه أعداءها باتفاقية سلام موقتة... لم يكن والدها عدواً لها ولا أمواله... لقد كانت عدوة نفسها لأنها نفت كل أحاسيسها بعيداً عن موطنها الأصلي واستطاعت أن تدوس الحنان والحب بحذاء أجبرت على انتعاله... وهي تتحدث مع أمها عن السيد أحمد والمشتريات وباقي المستلزمات اتصلت بها نادية... لم تصدق أن الرقم هو رقمها... أجابت بلهفة شديدة:

- نعم... نادية.
- كيف حالك دلال؟
- أنا من يسأل عن حالك يا نادية، هل أنت أحسن حالاً؟
- نعم... الحمد لله... أشعر برغبة ملحة في الخروج من المنزل ووالدتي تمنعني...
- لا عليك... سأتصل بها... وسأزورك في المساء لنخرج معاً...

أنهت دلال المكالمة وكلها أسف لما جرى لابنة عمها سمير، أمسكتها سلمى من يدها قائلة:

- تعالي معي... أريد أن أريك شيئاً...

دخلت دلال غرفة والدتها... جلست على حافة السرير وهي

تنتظر ما بجعبتها... فتحت سلمى خزانتها وأخرجت منها سواراً ذهبياً مطرزاً بالورد... كان موديلاً قديماً جداً وثقيلاً... وضعته في معصم دلال.

- ما هذا يا أمي...؟
- إنه سوار جدة جدتي توارثناه جيلاً عن جيل... هو ملكك الآن.... حافظي عليه ولا تنسي إهداءه لابنتك حينما تكبر وتصبح شابة....

ابتسمت دلال بوجه أمها وقالت لها بغضب شديد:

- هل تريدين أن أكذب عليك وأقول شكراً أم أعيد لك الماضي في لحظات لأذكرك لماذا كان أجدادكم يورثون لكم الذهب؟ حسناً... لربما أخبرتني بالحقيقة ثم تناسيتها... ألغيتها من قرص الذاكرة كي تعيشي كما أفعل أنا الآن... لكن لا بأس يا أمي...

انسي كل الاضطهاد الذي عشته من قبل والديك لأنك امرأة... كل التمييزات التي كانت تحدث بين الذكور والإناث... للرجل الأرض والمنزل والمزرعة... والكرامة والاحترام والتقدير... وللأنثى إسوارة الذهب وبضعة قماش مطرز والكثير من العجلة في إتمام الزواج... كما لو كانت الفتاة عندكم عبئاً ثقيلاً على العائلة... رقماً إضافياً أو مرضاً يسارعون للقضاء عليه...

هذا عدا الإهانة العظيمة التي كانت تواجهها الفتاة بحرمانها من التعليم فقط لأنها أصبحت امرأة وخروجها إلى الشارع غد

جرماً عظيماً أو ذنباً لا يغتفر... لم تكن تلك هي الحقيقة... الواقع هو أن المستوى الفكري والثقافي الذي كانت ستحظى به لم يكن لمصلحة الرجل آنذاك لأن بصيرتها المغشاة وفمها الأبكم كان يليق به وبخبثه أكثر كي لا تفقه عن الحياة شيئاً سوى أن تقول نعم وحاضر، استوقفتها سلمى قائلة:

- لكن لماذا كل هذا الغضب يا دلال؟... لماذا كل هذا الحقد الدفين بداخلك...؟
- أنا لست غاضبة منك يا أمي بل عليك... وعلى نفسي... لماذا نرضخ نحن النساء لسلطة القوي حتى وهو على خطأ... ولماذا نضع مجتمعاً جاهلاً متخلفاً بدرجة امتياز مقياساً لخطواتنا في الحياة... هل كان لك أن تقولي لوالديك كلمة لا يا أمي.... هل قلتها...؟ لماذا رضيت بحياة الذل باسم الطاعة؟ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق... يا أمي...

انخرطت دلال بالبكاء وفاضت أحاسيسها فوق طرقات الضمير... توسدت يومذاك حاضرها في ليلة سطع فيها نجم الماضي ليضيء من جديد... ويلقي بأنواره المزيفة والظالمة على سطح وجهها المتذمر من تاريخ عتيق... لم تكن تفتخر به... بل تستحي منه لأنه صنع من والدتها امرأة ضعيفة الشخصية ومترهلة المشاعر.

نظرت سلمى إلى دلال نظرة استياء وقالت لها بتذمر واضح:

- منذ أن وُلِدْتِ وأنت متمرّدة... لا أدري من أين ورثت هاته الطبائع....؟!!

خرجت مخلفة دلال تحدث نفسها:

- حتى أنا لست أدري من أين ورثت هاته الاستكانة للظلم وتعود أغنية الوهن...

ما الذي كانت دلال لتضيفه أكثر كي تنقذ أمها من أوهام غرست بوجدانها ولم تستطع أن تتخلص منها... هل كانت قادرة على إقناعها أن بعضاً من الأشخاص لا يؤمنون بالمرأة حتى ولو كانت عالمة ولا يخافون عليها بقدر ما يخافون منها... يسجنونها بتهمة جمالها وندرتها... يقتلون كل أحاسيسها لا باسم الدين ولكن باسم العادات والتقاليد التي منعت الرجل قديماً وإلى يومنا هذا أن يقول لزوجته أحبك... مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم اعترف أنه يحب عائشة رضي الله عنها أمام الملأ، أُناس في مجتمعنا لا يملكون أن يصنعوا لأنفسهم قراراً لكنهم يتحكمون في مصائر الناس... عاشوا حياة بائسة منعتهم من مزاولة حرياتهم بشكل طبيعي يظنون أنفسهم عاديين ومتفهمين يصطنعون من ضعفهم الثقافي ما يسمونه الرجولة لأنهم لو علموا أن الرجولة لا تكتمل بنقص العقل والفكر والتدبر والتبصر في الأمور بحكمة ورجاحة لأيقنوا وقتذاك كم هو ثمين ومتعب أن تكون رجلاً..

سافرت دلال عبر سفينة تمردها وسط محيط هادئ غارق في مياهه دون أن يشعر بالبلل... واكتفت ببضعة أوراق كي تكون

غاضبة في وجه بياضها البريء... احتملت لعنة الثورة... ونكتة الثراء كي تصبح مثلهم وتستمر في التنقيب عن المجوهرات في منجم كان للثروات الطبيعية لا للفضائل الإنسانية...

خرجت من غرفة والدتها المسكينة المغلوب على أمرها واتجهت إلى غرفتها كي تجمع كل الخواطر والمشاعر التي كتبتها قصد جمعها ونشرها كما نصحها السيد أحمد وهي تلتقط بقايا الحروف من حديقة قصائدها كي تضعها في مزهرية أحزانها وجدت أن الكثير منها يبدأ بعلامات استفهام... كيف ولماذا... وأين... وماذا...؟... أيقنت حينذاك كم أن الحياة مبهمة بالنسبة إليها وكم كانت صغيرة حين اعتقدت أن كل الأسئلة لديها أجوبة مطلقة... ما كان يؤلمها ويشوش على ذاك النسق اللامتناهي لأفكارها هم أشخاص مروا في حياتها وآخرون لا يزالون معلقين بحبال عبراتها المتين الذي لم تستطع تمزيقه بابتساماتها الموقتة، بعضهم سمحت لهم الأقدار أن يرسموا لمستقبلها مخططاً لم تكن قادرة على مواكبة تعرجاته وانحناءاته وبعضهم الآخر لم يكن يعرف عن الحروب سوى الاستسلام قبل الخوض فيها باسم الضعف المختلق ولأنها لم تعرف أن الفرق بين إنسان يعيش من أجل الحرب وآخر يحارب كي يعيش هو نفسه الفرق بين الرقم ونفسه... شمّعت جبهة المقاومة بداخلها كي لا تنتفض وتثور في وجه أعدائها الملفقين ككذبة جميلة ومصطنعة... وهي تكتب لم تكن تعرف هل كانت تكتب من أجل الحب أم من أجل الحرب... لم تحترم قواعد اللعبة

كي تبدأها وتعزف قطعة موسيقية تحمل اسم المواجهة... صدفة تذكرت نادية... تركت كل البياض والسواد من حولها في حالة من التعايش السلمي واتجهت مباشرة إليها... كانت الساعة الرابعة مساءً عندما دلفت منزلهم... وجدت زوجة عمها فريدة تجلس أمام التلفاز مستمتعة بمسرحية هزلية لم تكن تتلاءم ومسرحية الحزن والملل التي كانت تعيشها نادية... انتبهت لدخولها فرحبت بها...

- أهلاً دلال.... كيف حالك...؟
- الحمد لله وكيف هي نادية...؟
- هي أحسن حالاً.
- لكنها اتصلت بي صباحاً بدت لي مستاءة بعض الشيء.
- أنت تعرفين كم هي مدللة ابنة عمك سمير.
- حسناً سأصعد لأراها...
- كما تشائين... هناك شخص جاء لزيارتها يقول إنه صديقها بالنادي... لربما تعرفينه...

وهي تهم بالدخول إلى غرفتها استوقفها صوته... كان يتحدث عنها... سمعته يقول كلمة دلال فاستغربت هل هي التي يتكلم عنها أم أخرى... سمعته يقول إنه أحبها فتحيرت هل هي من أحبها أم أخرى... وهو يحكي عنها بألم... وبصدق فظيع وبصوت متقطع تتخلله الزفرات تملكها الخوف من شيء لم تكن تعرفه... لقد كان المصير... أرادت أن تنتشل بعضاً من روحها الضائعة بين كثبان صحرائها العاطفية الخالية من أشجار الشجاعة وتغرس بواحاتها

نخلة شامخة لتظلل بأغصانها حنانها الزائد الهارب من مواطن ضعفها وانحناءاتها... كانت تقف خلف الباب وبينها وبينه خطوتان كأنهما سحابتان أو زهرتان نائمتان لا أحد يقدر على إيقاظهما سوى قطرة ماء هاربة من الحياة... وهو يتكلم كانت تبتسم... والجراح بداخلها تلتئم... والعالم كله من حولها ينهزم... وكل الذين حكوا قبله عن المشاعر لم يتقنوا فن الخطابة قط... كل الذين شاهدوا طائرته وهي تقلع لم يعرفوا كيف سقطت طائرتها بسماع نبرات صوته الحزينة الباحثة عن الصدى... المتنازلة عن نظريات الوداع والفراق... كانت نادية تستمع إليه باهتمام وباستغراب كذلك... صمتت قليلاً ثم تزحزحت كلماتها من على أرضية لسانها وقالت له:

- ما أعرفه هو أن عمي ناجي صعب المزاج وقراراته تنفذ لا تناقش... هو أشبه بدولة مصغرة أو امبراطورية عريقة... لا ترضى المس بتاريخها الطويل... لا أدري كيف سأقنع دلال بما تقوله... صمت الطيار وبقلبه الكثير من الأسى والأسف، قال لها برجاء صامت:
- أرجوك لا ترفضي طلبي.

همهمت نادية بصوت خافت ووعدته في النهاية أنها ستساعده إن أمكنها ذلك... وهو ينصرف اختبأت في الرواق المجاور... كادت تتعثر لشدة ارتباكها... لم تدلف الغرفة إلا وهي تشاهده من النافذة ينصرف... ويسرق معه كل أحاسيسها التي انتظرته مطولاً في مطار لم يكن مخصصاً للطائرات وإنما للانكسارات....

- ابتسمت نادية في وجهها...
- هل تعلمين من كان هنا....
- نعم.... لقد سمعت كل ما قاله....
- إنه يحبك يا دلال ويود مقابلة والدك للمرة الثانية عله سيكون أكثر حظاً هذه المرة.
- لكنني لست موافقة.... وبالمناسبة كيف عرف منزلك...؟
- لقد شاهدته يخرج من منزلكم سابقاً...
- يقول إنه سأل عني مدير المطعم الذي أرتاده فأخبرته زوجته لامية كل المعلومات عني حتى دخولي المشفى...
- ومن أين تعرف زوجة المدير كل هذا...؟
- هي صديقتي بالنادي وهي من دلتني على مطعم زوجها الذي تغدينا أنا وأنت فيه يوم التقيناه برفقة أخته.
- نعم... لقد تذكرت... دعينا من الحديث عنه... أخبريني عنك... هل تشعرين بتحسن...؟
- نعم... أنا أفضل حالاً ولكن لماذا تتهربين من الطيار يا دلال...؟
- لا أشعر بشيء تجاهه... إضافة إلا أنني سوف أتزوج عما قريب...
- آه... فهمت... وقعت مجدداً في مصيدة عمي ناجي لمجرد أنه وضع بها قطعة جبن باهظة الثمن...

- هل تقصدين أنني فأر يا نادية... لو لم تكوني مريضة لرميتك بهذه الوسادة...

دخلت فريدة على الفتاتين مستغربة.

- هل تتشاجران؟... آه منكما أيتها الشقيتان ستنزعج جازية كثيراً عندما تعلم أنك أتيت اليوم ولم ترك يا دلال...
- لماذا؟... أين هي...؟
- عند جدتها.
- ما رأيك يا خالتي فريدة لو أخذت نادية معي بالسيارة ساعة... لا أكثر... أرجوك لا ترفضي... استسلمت فريدة لطلب دلال وسمحت لهما بالخروج.

ركبت نادية السيارة وهي تصفق من شدة فرحتها فهذه أول مرة تخرج فيها من المنزل منذ أن غادرت المشفى... كانت تحكي عن تجربة سقوطها عن الحصان ودلال تنصت بآذانها فقط وتدّعي تجاوبها مع قصة نادية باهتمام... كانت الأمطار يومذاك غزيرة وبعض من أشعة الشمس كانت تتسلل خلف عتبات السحاب كي تكسر كبرياء الضباب... وتقول له إن الشمس أبداً لا تغيب... ودون شعور منها... وجدت نفسها تنزف ألماً وعيونها تنتج مطراً لتنافس به مصانع السماء... فجأة أبطأت السرعة وركنت السيارة إلى جانب الطريق السريع... صمتت نادية برهة... تاركة للدموع فرصة كي تتكلم، بقيت الفتاتان ساكتتين لما يقارب الخمس دقائق والدموع تنزل والأمطار تهطل والكل من حولهم يهم مسرعاً إلى

بيته أو عمله أو شيء من هذا القبيل... كان الكحل يغطي وجهها ويرسم به لوحة لرسام مبتدئ لا يعرف عن فنون الرسم شيئاً سوى قلم رصاص أسود... أخرجت من حقيبة يدها منديلاً لتطفئ حرائق الهزيمة التي شبّت فجأة بوجهها الجميل فنطقت نادية قائلة:

- تملكين الدموع... وكذلك المناديل... أقسم إن حقيبتك مدججة بالمناديل يا دلال...

ابتسمت دلال ثم أردفت تقول:

- هكذا أنت دائماً.... تستطيعين إخراجي من بركة البكاء بكلمة واحدة... كم أنت مباغتة، فجأة تذكرت الساعة فانتهزت الفرصة:
- آه.... تذكرت يوم الحادث... كنت أنا من رجع بحقيبة يدك إلى المنزل... وأنا أهم بالدخول مسرعة سقطت منها ساعة يد رجالية.
- إنها لوالدي يا دلال... لقد جلبتها من عند مصلح الساعات قبل أن أدخل النادي... لكن لماذا تسألين...؟
- أعرف أنها له... وأعرف أنها هدية من صديق... ولكن كيف وصلت إلى السيد أحمد وهي للطيار... سأجن من التفكير... كانت تكلم نفسها بصوت خافت مسجون بين شفتيها.
- ولكن... ماذا تقولين... لا أفهم...
- لا عليك....

- أخبريني الآن لماذا تبكين....؟
- ألم يخطر قط ببالك يا نادية لماذا لا نسأل شخصاً ما إذا كان يضحك عن سبب ضحكه لكن البكاء يثير فضولنا وانتباهنا أم أن دموعنا هي القاعدة وابتساماتنا استثناء...؟

لماذا أحزاننا متابعة قضائياً وعبراتنا موقوفة رهن التحقيق... أم أنها مشاعرنا مطالبة دائماً بالمثول في محكمة الأقدار أمام جمع غفير لا يفقهون عن الإحساس شيئاً سوى العتاب والتأنيب وسوء التقدير... وهي تلقي محاضرتها المعهودة عن العواطف رن هاتفها الخلوي... لقد كان السيد أحمد... اتصل بها ليحدد موعد الزفاف ويتحرى عما فعلته بأوراقها... بكل أحلامها الأدبية وطموحاتها بأن تصبح يوماً من أكبر أدباء عصرها... لم تكن دلال قبله قط تحلم أن تكون كاتبة أو ترسم لها مخططاً أو برنامجاً للأحاسيس... كل ما كان بحوزتها هو مقدمة صغيرة جداً عن زلزال عنيف لم يكن ليضرب متعمداً وإنما ترعرع كطفل صغير وسط هزات العاطفة بحكم الفطرة... وُلد باكياً متصدعاً لا ليُؤذيها ولكن ليعلمها أنه لولا البكاء لما كانت هناك حياة... استأنفت دلال مسارها في الرجوع إلى بيت نادية الذي لم يكن بالبعيد معتذرة منها عما بدر منها من اضطراب جعل صفو النزهة معكراً كسماء ذاك اليوم...

دخلت المنزل وقد تبللت ثيابها ومعطفها البني من الفرو الخالص... تقدمت إليها الخادمة لكي تحمله عنها لتجففه قائلة:

- عنك سيدتي...

حملت دلال نفسها واتجهت نحو المطبخ... وجدت الخادمة تعد العشاء... ابتسمت في وجهها قائلة:

- كيف حالك نورة...؟
- ارتبكت الخادمة... استغربت كيف أن السيدة دلال بشحمها ولحمها تسأل عن أحوالها وهي التي لطالما أنّبتها وعاملتها معاملة سيئة....
- بخير سيدتي... سيجهز العشاء بعد قليل....
- أريد أن أسألك نورة...؟
- نعم سيدتي تفضلي... أنا رهن إشارتك اسأليني من الآن حتى طلوع الفجر.
- لا... هو سؤال واحد فقط... أخبريني ماذا كان سيكون رد فعلك لو خيروك بين رجل أحببته وآخر أحبّك؟ ماذا كنت لتختاري؟

قطبت نورة حاجبيها... تحيرت كان السؤال بالنسبة إليها أشبه بالأسئلة التعجيزية التي تُطرح في البكالوريا... فكرت قليلاً ثم أجابتها:

- لا يهم من يحب من... المهم أن أختار الرجل الأغنى من بينهما.
- إذن فالأموال عندك أهم من الإحساس.
- لا سيدتي... هي ليست مقارنة....

- لا، هي مقارنة... لأنني أسألك بمنطلق الحب وتجيبينني بمبدأ المادة....

خرجت دلال من المطبخ تاركة وراءها نورة تفكر يا ترى من الأهم... هل هي حفنة من الإحساس أم كيس من الأموال أم أنهما قضيتان متكاملتان أم أنها الحياة بالفعل مباغتة حتى الجنون...

ارتمت دلال على سريرها الفخم... وضعت يديها تحت رأسها وظلت ما يقارب الربع ساعة تنظر إلى سقف الغرفة المنقوش بطريقة منتظمة ومبهرجة وهي تفكر... تحاور نفسها... تريد أن تكتشف بداخلها قارة جديدة وتكون أشجع من كريستوف كولومبوس باكتشافه لأميركا.... تمنت لو أنها التقت سقراط في جلسة من جلساته الفلسفية كي تجادله عن الإحساس وعن الهروب منه وعن التحدي والإفضاء والكبت وعن الحب ومقصلته والرفض ومحرقته... تواردت إلى ذهنها الذي لم يكن معبأً سوى بصفقات والدها العديد من الأسئلة... وقفت لترى نفسها في المرآة وتعيد طرح الإبهام نفسه الذي أصبح يلاحقها كشبح خرافي عتيد وهو سر قبولها بالسيد أحمد ورفضها للطيار، عن سبب انحيازها إلى قرارات والدها وإلغائها شخصها وإرادتها الذاتية... لاحظت احمراراً شديداً ببياض عينيها... أصيبت بهلع شديد... بحثت عن أمها من غرفة إلى غرفة فوجدتها بالبهو... كانت تجري كالمجنونة بين الغرف... وتقول أمي... أمي... سمعتها سلمى فأتت مسرعة إليها:

- ما الذي يحدث يا دلال؟

- هل ترين ما بداخل عيني اليمنى.
- نعم... إنها حمراء اللون... لربما أزعجك شيء ما... أم أن الضغوطات التي تتعرضين لها في الشركة... لربما هو خدش بسيط... قاطعتها دلال قائلة:
- سأذهب إلى الطبيب.

ارتدت ملابسها واتجهت إلى عيادة خاصة.... رحب بها الدكتور قائلاً:

- هل أنت مريضة بارتفاع ضغط الدم.... ؟هزت رأسها مجيبة إياه بالموافقة.
- لا تخافي... سيختفي كل الاحمرار ولكن عليك بقياس الضغط كل يوم دون إهمال أو تقصير... حسناً لنقم بفحص شامل للعين.

أكمل الدكتور معاينته... لم تكن دلال تعاني شيئاً سوى مرض اسمه الحياة... مشكلة اسمها المنتصفات.... مسألة خالية من الحلول والمعطيات... هل كانت مجبرة أم مخيرة بأن تتخذ قراراتها بنفسها أم أنه قدر عليها بأن تكون امرأة في المنتصف...؟

لا أبداً لا توجد امرأة في المنتصف... إما أن تكون امرأة متمردة أو مترددة، إما أن تكون قديمة أو راقية متجددة.... إما أن تكون قلماً بسلطة كلماته أو ورقة بيضاء مستسلمة لسطوة الأقلام التي تلف بحبالها السوداء حول عنقها كما يستسلم الجرح لطعنة السكين...

لا توجد امرأة في المنتصف... هي دائماً تجلس بميزان الحياة... إما أن تكون فوق وإما تحت إما أن تصنع مجداً لأمتها وإما تساهم في انحطاطها بجهلها ونقص همتها... إما أن تكون من الطبقة المثقفة التي تعنى بالكتاب وتقيّمه وإما أنها تمرّ عليه مرور الكرام دون أن تعرف أنها على وشك السقوط من منحدر الجاهلية الأولى بتقديرها الخاطئ للأشياء ومعتقداتها البالية وخضوعها للظلم والاستبداد باسم الأنوثة...

وجدت أمها تنتظرها عند المدخل بلهفة شديدة فطمأنتها:

- أنا بخير أمي... لا تقلقي... فقط طلب مني الطبيب قياس الضغط.

احمرت وجنتا سلمى من الأسى على ابنتها وقالت:

- ولكنك أصغر بكثير من أن يرتفع ضغطك... صمتت دلال قليلاً ثم أردفت وشرارة الغضب تتطاير من عيونها:

- نعم أمي... أنا أصغر من أن يرتفع ضغطي وأصغر من أن أقرر مصيري وأفعل ما أريد... وأقول ما أحب وأجلس كيفما شئت وأذهب وأعود وقتما رغبت... أنا أصغر من كل الأشياء التي أحبها وكذلك أصغر بكثير من أن أحس وأشعر وأمارس ميولاتي الأدبية لأن رغباتي لا تتماشى ومصالح والدي... اتركوني وشأني... دعوني أمت كما أحب وأشتهي... أعطوني حريتي الفكرية... استنزفتم كل عواطفي فهل يستطيع أحد منكم أن يشتري لي قطعة من

الإحساس؟.... هل يستطيع أحدكم أن يعيد لي دلال التي غادرتني لأنني أجبن من أن أحفظ كل لغات الحب التي تتقنها وأصغر من أن أحمي شوارع الحنان بمدينتها من طوفان مفاجئ...؟

- نعم أمي.... أنا لم أستطع أن أمنعها من الرحيل تركتها تغادر... وقلبها ينزف بجراحكم... لأن أحاسيسها لم تكن تجرؤ على التكلم في حضرة أموالكم....

صعدت إلى غرفتها تجري... ارتمت على سريرها ونامت ملتحفة بغطاء الوجع...

من يجرحك لا يدمرك... هو فقط يعلمك.... كيف تقود حرباً ضد نفسك... ضد ضعفك... وتضمد جرحك بيدك... يعلمك أن الإنسان لا يعيش ولا يستمر إلا بمضخة قوية للحياة كالقلب وأنه لا شيء يستطيع أن يعترض طريقك إلا بإذنك... لربما تنزلق أحياناً في منحدر كبير أو تمر بمنعرج خطير يهوي بك إلى موت موقت لكنك ستعود من جديد وستقف باتزان أكثر وثبات أجمل إذا أحسنت المواجهة... من يجرحك يصنعك... لكنه لا يداويك ستظل بداخلك آلامه تؤذيك... وتنخر عروقك ومشاعرك وكل شيء فيك...

استيقظت دلال على طرقات باب عنيفة... لقد كان السيد ناجي، نهضت مسرعة على وقع كلامه الشديد:

- أُمهلك ربع ساعة كي تجهزي.... وتأتي الشركة لدينا مشاكل عالقة.

- .. إن كنت تتحدث عن أحدث معاملاتنا والتسهيلات التي قمت بها مع الشركة الألمانية فهي لا تزال رهن النقاش والمفاوضات...
- إذن... فأنت تعلمين الخطأ الفادح الذي ارتكبته.
- هو ليس بالخطأ.... هي سياسة للتسويق بكمية أكبر وبسعر أفضل، هدأ كلامها القليل من روعه قائلاً:
- تناولي فطور الصباح وأسرعي... لا تتأخري...

كان يهم بالخروج لكنه عاد أدراجه ليسألها عن وضع عينها.

ابتسمت بداخلها تلك الطفلة الصغيرة التي ما زالت تلعب بدمية لم تعرف عنها شيئاً سوى أنها صُممت ليلعب بها الأطفال... دمية كانت لتكون أجمل لو أنها ما نطقت وتكلمت وكبرت ثم فهمت كم هو مؤلم أن يصبح الإنسان دمية... شيء ما بداخلها وجدته يذكرها... يجمعها ثم يبعثرها... يريد أن يخبرها شيئاً عن الأنين... وعن كل السنين التي كانت فيها تقف بملعب الحياة دور حارس مرمى فاشل لم يحسن الدفاع عن مرماه فترك أهداف خصمه تنهال عليه أمام عينيه.... حارساً كان يحلم في طفولته أن يكبر ويصبح مهاجماً شرساً... بارعاً في المباغتة والتحدي والتسديد... لكنه فُوجئ بالحياة تواجهه وجهاً لوجه بملعبها وبمدينتها وموطنها... وكان وحده غريباً... ينتظر من أحد أن يصفق له ويهتف من أجله قائلاً: «تقدم ولا تخف»... احترمها وتبناها لأنه وُلد بين حناياها.... شرب مياهها ومشى على أرضها وتنفس

هواءها.... سايرها لأنه أيقن منذ البداية أنها عدو من الصعب أن ينهزم... وضعته بملعبها كي يقاوم ضرباتها المتتالية وهو الذي لم يعرف قبلاً أن الكرات التي أفلتها من يديه هي التي ستجعل منه حارساً جيداً تفتخر به الحياة وتصفق له الأقدار.

ارتدت دلال ملابسها على عجل وبعض القلق كان لا يزال ينافس سعادتها للوصول أولاً في سباق لم يكن مخصصاً لرياضة الجري وإنما للعبة المشاعر... صادفتها سلمى في البهو تشرب قهوتها على مضض... أمسكتها من يديها وعانقتها قائلة:

- هل أنت أحسن حالاً حبيبتي...؟

... أحست دلال بخجل كبير أنبها ضميرها لأنها أفرغت بكل رصاصات قهرها في وجه أمها البريئة من ظلم الأقدار... ابتسمت في وجهها واسترسلت قائلة:

- سامحيني أمي... أنا امرأة سيئة... ما كان علي أن ألقي بخطابات تمردي عليك... أنت أجمل وأحن الأشخاص علي... فلولاك أنت ما كنت لأكون أنا....

ابتسمت سلمى بإجابة حانية:

- الفتاة السيئة يا دلال لا تعتذر أبداً عما صدر منها.... ولكن من أخبرك بأن كلامك أغضبني... بالعكس تماماً... لقد أحببت فيك شخصيتك القوية والعنيدة التي حلمت دائماً أن أمتلك ولو القليل منها...

بكت دلال حتى أصبحت دموعها أمطاراً ووجهها حزيناً كالسماء... ارتدت معطفها واتجهت إلى عملها مباشرة... وهي تدخل الشركة انتبهت لوجود رجال من الشرطة... لقد كانوا ينتظرون عودة المحقق الذي جاء خصوصاً ليحقق في قضية عمها سامي الذي اتُهم والدها بقتله... دلفت مكتبها... نزعت معطفها... ووضعت حقيبتها ثم اتجهت إلى مكتب والدها لاستقصاء ما يحدث، وجدته جالساً يرتب دفاتره بعد أن غادر المحقق ببعض الاستنتاجات التي اعتقد أنها ستفيده وقبل أن تسأله أجابها:

- لقد قدموا لاستكمال التحقيق الخاص بمقتل صديقي سامي...
- ولكن أبي... ما دخلك أنت بالموضوع...
- هذا غير ممكن....سيشوهون سمعة شركاتنا.

نطق ناجي بتهكم شديد:

- لا تتكلمي عن السمعة أنت بالذات يا دلال... لأنك أنت وبغباوتك كنت تريدين الزواج بشخص أقل شأناً من عائلتنا وهذا كان ليسيء أكثر...

صمتت دلال ولم تجبه... انصرفت منتعلة يأسها وفقدان أملها في شفائه من أمراض المادة وفيروسات مهمتها قتل المشاعر وإقصاء كل الأحاسيس من عالمه النقدي... عادت إلى مكتبها وهي تفكر لماذا لم تجبه... ولماذا يستطيع هو دائماً أن يفجر بوجهها قنبلة القمع لتسقط هي ضحية في مدينة الصمت...

عندما كانت صغيرة أخبروها بأن الحياة جميلة.... وأنها ستتعلم فيها دروساً كثيرة لن تتلقاها بأي مدرسة مهما كانت جودتها وكفاءة معلميها... أقنعوها بأن الصمت أحسن من الكلام... وأن الهدوء أجمل من الضجيج، أوهموها بأن البكاء ليس من شيم الأقوياء... وأن الصراخ لا يُلائم الأبرياء... قالوا لها إن الأزهار لا تنمو إلا في فصل الربيع وأن الأوراق لا تسقط إلا في فصل الخريف... أنبوها لأنها لم تكن تشبه أحداً... كانت وحدها تتكلم والكل صامت، وحدها تصرخ والكل ساكت... كانت وحدها تترقب طلوع الشمس وغروبها... نمو الأوراق وسقوطها... كانت وحدها عندما رفضت الحلوى التي تقدم إليها كرشوة كي تصمت... وترفض لعبة تهدى إليها كي تنسحب من معاركها ضد الحياة... حاربوها لأنها رسمت أمها تبكي وهي تضحك ووالدها سعيد وهو حزين ومنهك، أرغموها أن تتبنى مبادئهم وتصون أعرافهم وتقاليدهم ومذاهبهم... أجبروها أن تشرب قهوتها الصباحية معهم وأن تسير بجانبهم وتكتب بدفاترهم وتقرأ بعيونهم وتحس بمشاعرهم... كانت وحدها عندما قاومت نواميس حياتهم القديمة... وأرادت أن تصنع من حطامهم وضعفهم قنبلة موقوتة ضد الرجعية... وعندما كبرت بكت عندما عرفت أنها لم تكن قط طفلة سعيدة.

على حين غفلة فاجأها السيد أحمد بطل روايتها الجديدة باتصال هاتفي... ليكسر شجنها بصفقة حنان مباغتة:

- أهلاً جميلتي.
- صباح الخير سيد أحمد.
- ستصبحين زوجتي عمّا قريب وما زلت تنادينني بالسيد أحمد.
- نعم... لأنني أؤمن كل الإيمان بأن الاحترام أجمل من الحب بكثير.
- حسناً كما تشائين... اتصلت بك كي أعرف ما فعلته فيما يخص الكتاب...؟
- لقد... جمعت كل الأوراق... كما أنني صححت كل الأخطاء وسأقدمها لدار النشر.
- هذا ما أردت قوله... لدي صديق له دار نشر معروفة... سنأخذ إليه بكل ما خططته وسنرى إذا ما كان سيوافق على طبعه...

سعدت دلال بالخبر وتسللت كرات الفرح إلى مرمى حياتها، ابتسمت ابتسامة عريضة كشمس غادرها الليل تواً... وجدت نفسها تشكر السيد أحمد من كل قلبها قائلة:

- شكراً لك... هذا الصنيع لن أنساه لك مدى الحياة...

حسناً... سأزورك في المساء لآخذ الأوراق وكذلك سنتعشى معاً.

أجابته بالقبول وكلها أمل أن تحقق ولو جزءاً بسيطاً مما حلمت به طوال حياتها وهو أن تثبت قدراتها الأدبية وموهبتها

الشعرية... لم تكن دلال تكتب عن الحب فقط بل إنها كانت امرأة يفتخر بها الوطن... امرأة تكتب من أجل الحرية والكبرياء والهوية والانتماء... امرأة أحدثت الفارق في مباراة المشاعر وأيقظت أحاسيسها النائمة على وسادة المطامع والمصانع والمصالح.... امرأة تعرف متى وكيف تقول لا... لأن الحرية لديها لا تقدر بثمن... امرأة واجهتها الحياة فتصدّت لها ببراثن الذكاء وكانت متضلعة في حروبها ضد العملة الصعبة والجفاء... أنثى عاشت طوال حياتها حزينة كعصفور لا يعرف عن السماء شيئاً لأنه ولد بين أحضان قفص حديدي أُجبر على التأقلم معه...

قدم السيد أحمد مساءً إلى المنزل فوجد دلال في انتظاره وأوراق الماضي والحاضر تنام بين يديها... خرجا معاً... وظلت طوال الطريق تحكي له عن حبها وشغفها بالأدب وعشقها للقصائد التي تتكلم عن الحرية والوطنية والمبادئ والأخلاق فزاد احترامه وتقديره لها... كان عبثاً يبحث وسط غابات أمواله الضخمة عن شجرة واحدة تحكي عن الإنسان فوجدها كما تخيلها... وكما ظل سنين طويلة يريد أن يلتقي امرأة مثلها أو تشبهها إلى حد بعيد... قرأت له قصيدة عن فلسطين فاحمر وجهه وبدا الارتباك واضحاً عليه سألته:

- هل تحب فلسطين كما أحبها...؟

صمت فاسترسلت قائلة:

- أفهم شعورك.... أصبحت الآن أُدرك أنك رجل عاطفي

وحساس... والقضايا الوطنية تستفز غيرتك على الأوطان العربية...

أحجم عن الكلام بضع دقائق ثم استسلم للحروف قائلاً:

- أنت امرأة طيبة يا دلال...

استغربت جوابه... سيدة أعمال ناجحة مثلها وامرأة ثروتها الحقيقية كلمات لا تنتهي، لا تعرف فقط كيف تقبل صفقة أو ترفض أخرى بل إنها تدرك كذلك كل الكلام الذي يقال بين السطور... شعرت لوهلة أنه يريد أن يمرّر لها رسالة لم تفهمها... رسالة ضاعت بين طرقات أحرفها المفخخة... عادت من العشاء وكلها سرور سوى أن الشك كان يُخامرها مانعاً نمو ضحكتها من أن يكتمل في بساتين بهجتها... غيرت ملابسها... دخلت غرفة الرياضة كي تمارس بعض التمارين الرياضية.... كان الليل يومذاك جميلاً والنجوم من حوله تجول بأروقة منازله السوداء مبتسمة في وجه القمر... استرقت دلال السمع من النافذة... كان صراخ السيد ناجي واضحاً... لقد كان يكلم السائق كمال قائلاً:

- لقد حذرتك من الدخول إلى الوطن يا كمال.

تسمرت دلال في مكانها... لقد كذب عليها حين قال لها إنه كان مريضاً... الحقيقة هي أنه كان خارج الوطن تحت ضغط من والدها... وُلدت بين حنايا روحها ورقة وقلم تكتب أكثر مما تمحو... تنجب أكثر مما تجهض... وتضحك أكثر مما تبكي لكنها تموت أكثر مما تعيش...

مرت الأيام تجري على مرأى من عيونها دون أن تحرك ساكناً ودون أن تفضي بما كان يُخالج صدرها من ريب دخل بيتها دون استئذان ليكسر كل مزهريات الثقة التي لطالما زينت شرفاته بها... أرادت أن تعرف الحقيقة كلها لا نصفها وتتحرر من سجن والدها الذي دخلته بإرادتها... رجعت إلى المنزل مسرعة وقد نسيت بعضاً من حاجياتها ودواء الضغط فوق الطاولة... كان يوم السبت الموافق لعيد ميلاد السيد أحمد الخامس والسبعين... أرادت أن تفاجئه بهدية بعدما تحققت من تاريخ ميلاده الموثق في أوراقه الثبوتية... دخلت مسرعة أخذت حاجياتها واتجهت إلى مركز التسوق... ركنت السيارة ودلفته بلهفة شديدة... وهي تجول بين متاجره احتارت ماذا ينفع كهدية لرجل يملك كل شيء... استقرت على فكرة وكانت بالفعل صائبة في اختيارها... علبة للشطرنج من النوع الفاخر... لقد كان هو من أخبرها عن شغفه بهاته اللعبة... وضعتها في كيس ورقي مزين بالأزهار واتجهت مباشرة إلى شركته التي يدير منها كل فروع الشركات الأخرى... سألت السكرتيرة عنه فأجابتها قائلة:

- السيد المدير العام لا يعمل أبداً يوم السبت... استغربت كلامها لأنه هاتفها مرات عديدة يوم الجمعة وكان يومذاك منهمكاً بأعمال شركته... فكيف لا يعمل يوم السبت...؟ فكرت في أن تفاجئه بمنزله ويا ليتها ما ذهبت... يا ليتها الحياة أخبرتها خفية عن الأقدار أنه ما كان يجب عليها أن تزوره في بيته... وهي تركن السيارة في فناء المنزل...

احتارت لضخامته وفخامته... لقد كان مدينة صغيرة... كأنه لوحة زيتية أو حلم يراه الرائي فيستيقظ من نومه سعيداً ومبتهجاً...

طرقت الباب ففتحت لها امرأة طاعنة في السن:

- أهلاً... من أنت؟

- أنا...

ارتبكت دلال دخلت دون أن تجيبها، بقيت الخادمة مشدوهة لدخولها... صمتت برهة ثم أردفت قائلة:

- المنزل كله مراقب بالكاميرات سيدتي... والسيد يمنع الزيارات التي لا تسبقها المواعيد...

- حسناً لا تقلقي... أنا خطيبته وجئته بهدية... اليوم عيد ميلاده... أردت فقط أن أفاجئه...

ابتسمت المرأة في وجهها قائلة:

- حسناً... تفضلي... هو في غرفته... إنها الأولى على اليسار في الطابق العلوي...

صعدت دلال السلالم مسرعة متحدية كل مفاجآت القدر... أصبح قلبها ينبض بشدة والعرق يتصبب من على جبينها، وصلت إلى باب غرفته ببعض ما تبقى في عروقها من دم الإرادة والثبات... كان حدسها بهذا اليوم الأسود صائباً... وشعورها بأن شعلة النار التي أُشعلت تواً ستنطفئ... سمعته يتكلم لكنها لم تكن لغتها... ولا حتى إحدى اللغات التي تعرفها...

لقد كان يرتل بعض الآيات بالعبرية... ما يسمونها هم بالصفح، فتحت الباب وعيونها غارقة في بحر من الدهشة والألم...

أضحت رغماً عنها طريدة الندم... كان يشعل الشموع ويضع طاقية فوق رأسه... صُعق وهو يراها... جثا على ركبتيه وهو يرى حلمه يتبدد أمام عينيه... سقطت الهدية من يدها... وكل السعادة التي وجدتها معه... ماتت لحظتها... كم كان عيد ميلاده بائساً... كم كان منافقاً وكاذباً عندما أخفى عليها أهم شيء... أصوله وديانته التي لم يستطع أن يتخلى عنها في بلد المسلمين... بكت... وانتصرت جيوش دمعها في احتلال مدن ابتساماتها... هوت كل أمانيها كأوراق الخريف... اعتصر قلبها الشجن... لم تكن تدري كيف عنّ على خاطرها أن تزور عدوها في بيته وترى كل انكساراتها معلقة على جدرانه... وأحزانها نائمة بين أحضانه... تمالكت نفسها... وحملت الهدية... فتحتها وقدمتها له قائلة:

- إنك بالفعل تستحقها... فأنت لاعب شطرنج بارع لكنك لم تخسر كل جيوشك لتحافظ على الملكة... لقد حافظت على الكل وخسرتها... خرجت مسرعة... وهرع هو بدوره وراءها يجري يقول لها:
- انتظري دلال... كنت سأقول لك إنني...
- نعم... كنت ستقول لي إنك رجل وغد ومخادع.

انسحبت دلال من لعبته تجر هزيمتها بحبال دموعها الغليظة... وهي تركب سيارتها وجدت شخصاً يناديها بصوت عال

ويقول لها توقفي، كان يخرج من منزل السيد أحمد لكنها كانت تعرفه وركبت طائرته في يوم ما وودّعته قبل أن تعرف أن هنالك أشخاصاً في حياتنا لا يلائمهم شيء سوى الفراق والابتعاد... كان هو الطيار لا غيره...

احتبست الكلمات في فمها... وتجمدت الدموع في قارة وجهها البيضاء... ارتدت فستاناً يتلاءم وموضة الاعترافات والاستفهامات... وجدته يقول لها:

- ما الذي أتى بك إلى منزلنا... ولماذا خرجت مسرعة...؟

لم تنبس بكلمة واحدة كانت الأحرف تنتحر الواحدة تلو الأخرى من شرفات لسانها... تاركة فرصة نجاة وحيدة لجملة بريئة:

- هل يقربك السيد أحمد...؟

- نعم... إنه والدي...

لم تحتمل دلال الصدمة... أُغمي عليها وقتذاك... فحملها الطيار بسيارة أحزانها كما سبق وأن أركبها من قبل طائرة أوهامها... وعلى جناح السرعة أدخلها المشفى وهو لا يعرف ما الذي يحدث... وبعد مرور بضع ساعات استيقظت... حملت نفسها وغادرت المشفى خفية عنه بجروح كانت تأبى أن تلتئم... جروح لا يعرف الأطباء عنها شيئاً وأحدث أجهزة العلوم لا تقدر على تشخيصها... لم تكن تدرك أن الحياة مباغتة بشكل لا يوصف ولا يستوعبه عقل أو منطق...

مسحت دمعها بمنديل أصبح صديقها أخيراً وحتى أوفى من كل الذين عرفتهم... اتجهت إلى المنزل كي تجد مصيبة أخرى في انتظارها... وجدت أمها تندب حظها وتهدم كل ما تبقى من بنايات سعادتها الموقتة بحسرتها... ويأسها... سألتها بكلمات متقطعة شاخت قبل أوانها....

- ما الذي يحدث... لماذا تصرخين أمي...؟
- لقد أخذوا والدك...
- من؟
- رجال الشرطة... يقولون إن التهمة ثبتت عليه وهو من قتل عمك سامي...
- ولكن... هل لديهم أدلة...؟
- نعم... إنه السائق كمال هو من قام بتسميمه ثم فرّ هارباً من الوطن... يا رب... من أين تأتيني كل هاته المصائب!!

استغربت دلال هاته الأحداث التي ارتمت بين طيات أيامها كزائر عميل للإساءة بكل أنواعها... رجل كانت تخاله صديقاً لكنه مخادع... وآخر ظنته والدها لكنه كان قاتلاً... ورجل ألغته من قائمة مشترياتها لأنه لم يكن بالثمن الذي يريده والدها... لم يعد لدلال شيء... فقدت كل الذين حموها من أمطار القدر... وها هي الآن تقف يتيمة في معركة يموت فيها الجميع إلا الحياة... هي فقط من يعيش على أنقاض الآخرين... ويستمر بحطامهم... هي فقط من يعلن البداية ويشهر بالنهاية... ويقرر ويخطط ويراوغ

ويباغت ويتحدى ويناهض ويفاوض ويتصدى... هي فقط من ينتصر...

استقالت دلال من منصبها في الشركة وتركت الإدارة لعمها سمير وتفرغت للكتابة... رأت الأشياء بأمل جديد فَفُتحت لها أبواب الحظ وتمرست هواية الكلمات وأبدعت في إدخال أحرفها مرمى الجمل في ملعب الأدب... أتقنت رسم جراحها وكلومها ومشاعرها المتمردة على عالم يقيس الإنسان بوزنه لا بأخلاقه... بثروته لا بمبادئه... بأمواله لا بمشاعره... بممتلكاته لا بمواقفه... عالم لا يعرف أن الإنسان لا يصمد طويلاً في معركة ماتت فيها كل أحاسيسه... عالم لا يعرف عن الإنسان شيئاً...

أن تكوني كاتبة فهذا يعني أنك جُرحت وعانيت وتألمت وواجهت وتحديت لكنك لم تنتصري سوى فوق الأوراق... هذا يعني أنك تحملين بقلبك فائضاً من الأحاسيس والمشاعر التي لولاها لما بكت أقلامك كلمات ممتزجة بالعَبرات... ثم بعد كل ما كتبته... كيف استطعتِ وتحديتِ الأبيض بسواد أقلامك؟ كيف ضمدت جراحك بآلام الورق وهو الذي لم يعرف قبل كلماتك وجملك وحتى فواصلك ونقطك تجاعيد مبكرة....

انتهت